يا ناردين:
هذه هي الحياة

د. بشير عبد الواحد يوسف

الكتاب : يا ناردين - هذه هي الحياة (رواية)

المؤلف : د. بشير عبد الواحد يوسف

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٢٠

رقم الإيداع : ٩٦٣١ / ٢٠٢٠

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978-977-493-293-9

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

يا ناردين:
هذه هي الحياة

رواية

د. بشير عبد الواحد يوسف

إهـداء

أهدي هذه الرواية إلى

ابني حبيبي : دكتور سلوان

لهدوئه ، ورجاحة عقله ، وحبه وتعلقهِ بأمهِ وأبيهِ

يا الله :

بارك به ، وامنحه الصحة والسلامة ، وزده ذكاءً على ذكاء

شكر وتقدير

شكري وتقديري إلى

زوجتي الغالية

لتهيئة الظروف الملائمة لكتابة هذه الرواية

مقدمة

رواية رومانسية حقيقية من الواقع ، تحكي عن قوة أواصر الصداقة الحقة ، والتضحية في سبيلها ، لأنها نابعة من القلب ، تجسِّد كل معاني الحب والعواطف الإنسانية النبيلة ، لكونها لا توزن بميزان ، ولا تُقدَّر بأثمان ، ولا تذوب كما يذوب الجليد ، ولا تغيب كما تغيب الشمس ، وهي الوردة الوحيدة التي لا أشواك فيها ، لأنها حلم وكيان يسكن الوجدان.

كذلك تجسِّد حق الجار على الجار ، ومن موروثنا أن رجلاً أراد أن يبيع داره ، فطلب ثلاثة أضعاف حقه ، فقيل له : يا رجل ، إنك تطلب ثلاثة أضعاف ثمنه ، قال : والله صدقتم ، لأن الدار ثمنه ألف دينار ، وثمن جاري ألفان.

"أبو سعد" كان نِعمَ الجار لأهل "ناردين" ، وأبًا روحيًا لها بعد أن رحل كل أهلها. صان الصداقة وحق الجيرة بكل إخلاص وأمانة ومحبة ، فالصداقة الحقة لا تموت إلا إذا مات الحب ، وأبو سعد وناردين ولؤي لديهم من الحب ما يكفي كل الناس.

المؤلف

(١)

أعوام الثمانينات من القرن الماضي سنين ملتهبة، كل شيء من أجل المعركة، إنها الحرب الضروس بين العراق وإيران، بين الجارين التاريخيين، ليست الحرب الأولى، فبينهما حروب من فجر التاريخ، من زمن "نبوخذ نصر" و"كورش"... لم يستطع أحدهما أن يحقّق نصرًا حاسمًا على الآخر، حروب كَر وفر لم يحصد منها الشعبان إلا الخسائر الهائلة في كل المجالات، ومع هذه الدروس البليغة المستنبطة من التاريخ، لم يعي قادة البلدين الدرس، فوقعت بين البلدين في عام ١٩٨٠ حربًا هائلة راح ضحيتها الملايين من الطرفين وتدمير اقتصاد البلدين وتوقف التطور لثمان سنوات عجاف مدمِّرة، دون تحقيق أي نصر على الأرض.

في هذه الظروف الحرجة والحرب مازالت تدور رحاها وتطحن كل شيء، انتهى أبو رائد المقاول من بناء بيتين مجاورين لبيتنا في قطعة الأرض التي اشتراها منا بثمن بخس بسبب حاجتنا لبيع نصف قطعة الأرض التي نملكها لمباشرة البناء.

أبو ناردين اشترى البيت الملاصق لبيتنا في السيدية بعد أن باع بيتهم في الكرادة داخل.

لا أحد يعرف شيئًا عن أهل ناردين، كل ما نعرفه عنهم أن الأب مهندس سيارات متقاعد، والأم ربة بيت، وناردين طالبة في كلية طب المستنصرية في السنة الثالثة، وأخوها الأصغر منها "أنور" مازال طالبًا في المعهد التقني... عائلة مستورة، ليس لهم علاقة بأحد كافين خيرهم شرهم؛ كما يقول العراقيون.

حاول أبو ناردين أن يتعرف بي أنا "أبو سعد" من خلال السلام والابتسام، وفِي أحد الأيام أهداني شيشة طرشي معتق طيب المذاق، قال : هذا الطرشي صنعته بيدي... طرشي متميز. فشكرته كثيرًا وأهديته كمية من رطب وبرتقال حديقتنا... وهكذا توطدت نوعًا ما العلاقة بيننا.

مساء الخميس زارني ودعاني إلى إفطار متميز صباح الجمعة في سوق الصدرية عند أصدقاء له معرفة وصداقة وميانة معهم يملكون مطعمًا صغيرًا متخصص ملحق بالبيت، يجهزهم أبو ناردين بالطرشي، وفعلاً كانت زيارة ممتعة، قضينا ثلاث ساعات جميلة، بعدها عدنا بعد أن ملأنا صندوق السيارة بما لذَّ وطاب من الخضر والفاكهة واللحوم والأسماك وبأسعار تقل كثيرًا عن أسعار علوة السيدية التي أعتدنا ان تكون مشترياتنا منها باستمرار لقُربها من بيوتنا.

لاحظتُ أن مسحة من الحزن والخوف تغطي ملامح أبو ناردين، أمَّا أم ناردين فلم أراها تخرج من البيت إطلاقًا،

ولكني رأيتها في حديقة بيتهم تلبس الملابس السوداء مثل ابنتها ناردين.

حدثني أبو ناردين بعد أن وثق بي أن أخاه قد أعدم قبل ثلاثة شهور بتهمة انتمائه لحزب الدعوة المحظور، وأخوه الأكبر هارب إلى إيران خوفًا من بطش النظام، وهو يتحمل هذا الوزر والذنب العظيم رغم أنه لا علاقة له بالموضوع لأنه لا يحب السياسة ولا يتعاطاها ولا يحب أن يقيم أي علاقة مع السياسيين حتى ولو كانوا من أقرب الناس إليه، لأنه يدرك أن لعبة السياسة في العراق تعني التهلكة، وها هو اكتوى بنارها، مُطارد من قوى أمن الدولة، ويعاني من آلام لا تُطاق رغم المهدئات عندما زُجَّ به في سجن الحاكمية لستة شهور متتالية، وما لحق به من إهانة وضرب مبرح أثناء التحقيق يريدون معلومات عن إخوته، وهو لا يملك شيئًا من هذه المعلومات، وبعدما اقتنعوا بعض الشيء أطلقوا سراحه، ولكنهم يراقبونه وبين الحين والآخر يعتقلونه بعض الأيام... وهكذا ترك وظيفته في الشركة العامة للسيارات بدون تقاعد، وباع داره واشترى هذه الدار باسم شقيق زوجته في هذه المحلة الجديدة، عسى ولعله يحيا بأمان ويبتعد عن مركز المشاكل في الكرادة داخل... ورجاني أن أكتم السر ولا أخبر أحدًا بالموضوع.

قلت له مطمئنًا :

- اطمئن أبو ناردين سرك في بئر ، وأرجوك أن تعتبرني صديقك وسأقف معك لمساعدتك قدر استطاعتي، لكني مثلك أكره السياسة وأبتعد عنها، فأرجو ألا تزعجني بأي موضوع سياسي، وأن تبعدني تمامًا عن مناقشة أي موضوع سياسي، وعليك أن تعرف أني "صابئي" بمعنى أني بعيد كل البُعد عن حزب الدعوة ، ولا يمكن أن أتعاطف مع أي حزب إسلامي مهما كان اسمه أو منهجه، فأنا رجل علماني تقدمي مدني.

- هل أنت يساري؟

لم أجبه، ولكنه أردف أنه يساري قلبًا وقالبًا.

- أبو ناردين ، أرجوك أبعدنا عن السياسة ، وهذا أخر كلام بالموضوع.

- لا بد أن السياسة ألحقت بكَ ضررًا ولهذا كرهتها.

- نعم يا أبا ناردين ، كنتُ صبيًا في المرحلة المتوسطة من الدراسة ، عندما أقنعتني المعلمة "نائلة" في شارعنا أن أطلب من أصحابي حضور اجتماع يوم الجمعة في بيتها للانضمام لخلية للحزب الشيوعي العراقي ، نناقش فيه أحداث الساعة لتحقيق وطن حر وشعب سعيد... وبالفعل تحدثتُ مع زملائي الذين ألعب معهم كرة القدم ويسكنون معي في نفس الشارع ومعظمهم أقربائي ومعي في نفس

المدرسة ، وقلت لهم : يا شباب ، لنجرِّب ونشرب الشاي ونأكل الكليجة ، وبعدها نقرر معًا... وافق الجميع على مقترحي هذا ، وفعلاً حضرنا أول اجتماع يوم الجمعة في بيت الست نائلة ، وفوجئنا بالحضور كلهم شباب وشابات شارعنا... إحدى الفتيات كانت بارعة الجمال فاتنة بمعنى الكلمة تلبس المايكرو جيب الذي كشف عن كامل أفخاذها ، كانت الست نائلة تتكلم ونحن الشباب مركزين النظر على سيقان الفاتنة المتعالية التي لا تكلّم أحدًا منا ولا تسلّم ولو بابتسامة خفيفة باعتبارنا أولاد شارع واحد... وانتهى الاجتماع دون أن نفهم جُملة واحدة مما قالته ست نائلة ، بعدها شربنا الشاي مرةً ثانية ووزعتْ علينا الكليجة وخرجنا واحد بعد الآخر بفاصلة زمنية لكي لا نلفت الانتباه...

تناقشنا بالموضوع بعد أن علمنا من ست نائلة أن الاجتماع يوم الجمعة من كل أسبوع وأن الاشتراك مقداره مائة فلس شهريًا... قيمنا الأمور فوجدنا أن التمتع برؤية أفخاذ الفاتنة المتعالية المتغطرسة لساعة زمن كل جمعة يكلّف كل واحد منا خمسة وعشرين فلس ، ورأينا أنه مبلغ معقول ومقبول ، فاتفقنا على الاستمرار بالحضور ودفع الاشتراك دون تردد.

كنا قد اتفقنا سابقًا على تشكيل فريق كرة قدم ، على أن يدفع كل واحد منا مائة فلس لشراء مستلزمات اللعبة ، وباعتباري رئيس الفريق دفعت دينارًا كل ما أملكه ، على أمل أن يسدده

الزملاء بالتقسيط المريح، ولهذا سجلت أسماء الفريق في ورقة وثبَّت أمام اسم كل واحد مبلغ مائة فلس... كان عددنا ثمانية وننتظر أن يكمل عددنا إلى أحد عشر لاعب غير الاحتياط.

حضرنا في بيت ست نائلة اجتماعين، وفِي الاجتماع الثالث أخبرتنا بنقلنا نحن الشباب إلى خلية أخرى في نفس شارعنا مسؤولها أستاذ الفيزياء في مدرستنا "عبد الحليم سعيد" وتكون الاجتماعات في بيته.

في الحقيقة ابتئسنا، وأخذ أحدنا ينظر في وجه الآخر، ولكن ماذا نفعل، أمرنا إلى الله... وهكذا انتظمنا مع أستاذ عبد الحليم، وفِي أول اجتماع لنا معه وزَّع علينا في نهاية الاجتماع منشورات حزبية تهاجم الحكومة وتنتقص منها وتحث أبناء الشعب على التظاهر لنيل حقوقهم المسلوبة... سلمني ثلاثين منشورًا مع مادة لاصقة، وقال لنا: هذه المنشورات الليلة تلصقونها في السوق في مواقف الباصات أو على واجهات المحلات أو على الحيطان البارزة، وكذلك على أجسام سيارات مصلحة نقل الركاب... وهكذا بعد أن جنَّ الليل وزَّعتُ المناشير على ثلاثة من الرفاق وثلاثة يراقبون أنا واحد منهم، المرحلة الأولى نلصق خمسة عشر منشور والمرحلة الثانية الخمسة عشر منشور الأخرى على محيط السينما.

حالما بدأ الرفاق باللصق؛ طوَّقتنا قوات الأمن وألقت القبض علينا جميعًا ونقلونا فورًا إلى أمن الموانئ وأنا بحوزتي خمسة عشر منشور وورقة اشتراكات فريق كرة القدم، وعينك ما تشوف إلا النور لمدة واحد وأربعين يومًا، تحقيق كل ليلة مع الضرب بالخيزرانة التي تلهب الجلد وكأنها قوس ناري، مازالت آثارها معلمة على جسدي...

بعد خروجي من هذا المأزق الرهيب الذي كاد ينهي مستقبلي الدراسي عاهدتُ أبي أن أترك السياسة ولا أسمح لأحد مهما كان أن يعلمني هذه البلوة لأنها تعتبر جريمة في البلاد النائمة.

ردَّ عليَّ أبو ناردين بحسرة وتأوه خرجت من أعماق قلبه، ونزلت من عينيه دمعات حارة كوت وجنتيه، وبعد زفير وشهيق وحسرات وتأوات:

- كل هذا الذي ذكرته لي يعتبر زلاطة مما عانيته أنا أيام وشهور، لا أعرف أين أنا، وكل ليلة صعق بالكهرباء وأنواع الكابلات الكهربائية تنزل على جسدي وكل أنواع الضرب والرفس على صدري وبطني وتعليق في المروحة لساعات، هناك مناطق في جسمي لا زلتُ إلى الآن لا أشعر بها، وهناك مناطق ماتت ومنها عضوي الذكري لأنهم أثناء التعذيب كانوا يربطون به القراصة الكهربائية فيهزون كل

كياني ثم يسكبون عليَّ الماء البارد فأفقد السيطرة على الإدرار والخروج ، كل هذا ليس مهمًا ، ولكن المهم أنهم مردوا كبدي برفساتهم المميتة على بطني ، والآن أنا أعاني من مشاكل صحية بالغة التعقيد بسبب تلف معظم الكبد ، والطبيب الأخصائي بعد عدد من التحاليل والأشعات أخبرني بضرورة تبديل الكبد ، ولكن علم الطب مازال في مراحل البحث والتجربة ولهذا لا تتوفر مثل هذه الإمكانية بالوقت الحاضر.

- ربنا يكون بعونك أبو ناردين ، اللي يشوف مصائب الناس تهون عليه مصيبته.

(٢)

أم ناردين لديها بعض المخشلات الذهبية باعت معظمها لتسيير أمور الحياة ولم يبقَ إلا القليل، وأبو ناردين يحتاج إلى العلاج ومراجعة الأطباء باستمرار.

ذهب أبو ناردين إلى شارع الشيخ عمر حيث محلات تصليح السيارات واستعان بخال أولاده الكبير "تحسين" ليجد له عملاً باعتباره مهندس سيارات، نظر إليه بشفقة:

- يا أبا ناردين تصليح السيارات يحتاج إلى قوة وجهد وأنت صحتك لا تساعد كما تعلم، ولكني أستطيع أن أعطيك خانة في هذا الكراج الكبير لتفتح مطعمًا صغيرًا للعمال.

شكر أبو ناردين تحسين ووعده أنه سيهيئ المستلزمات وسيباشر العمل بعد يومين إن شاء الله.

جاءني ليبشِّرني بالعمل الجديد لكي يتمكن من تسديد مصاريف ناردين وأنور على الأقل ويكون أكلهم من مواد هذا المطعم الصغير ويشتري الدواء من بيع الطرشي لأصدقائه في سوق الصدرية ويبقى ما تبقى من قطع بسيطة من الذهب عبارة عن قلادة وخاتم وتراجي قدَّمها لأم ناردين يوم زواجهما ذكرى عزيزة، وبنفس الوقت احتياط لغدر الزمان

صباح الجمعة جاءني أبو ناردين ورجاني أن أذهب معه إلى سوق الصدرية بسيارتي لأن سيارته تعطَّلت بسبب انتهاء عمر البطارية، فقلتُ له:

- هذه ثلاثون دينار سلف اشتري بها بطارية.

قال بخجل وأدب جم:

- اجعلها خمسين دينار.

- تدلل أبو ناردين، تفضل الخمسين دينار.

- شكرًا، وسأعيدها من أرباح المطعم.

ذهبنا إلى السوق ، فاشترى كمية من البطاطس والباذنجان والطماطم وكمية من البصل والثوم وشجر كوسة وفلفل أخضر وبعض البهارات والمطيبات وزيت طبخ.

تناولنا الإفطار في مطعم أصدقائه كالعادة، ثم عدنا إلى البيت.

في الطريق قلتُ له:

- لقد نسينا شراء اللحم.

فردَّ عليَّ بشيء من التهكم:

- اللحم غالي هذه الأيام، وهؤلاء عمال بسطاء يريدون وجبة طعام رخيصة تشبعهم ، ولهذا فكرتُ في "التبسي" ، أكلة شعبية طيبة ورخيصة، تعلمتُها أثناء خدمتي بالجيش عندما كنتُ الطبَّاخ المفضل في مطعم ضباط القوة الجوية الذين تمسكوا بي وأنا ارتحت لذلك لأتخلص من جهد تصليح

سيارات الضباط ومشاكلها وليكون أكلي من أكل الضباط دون مقابل، فأتقنتُ هذه الأكلة وتفننتُ في طبخها.

قشَّر البطاطس باحتراف ، وقطَّع الباذنجان والكوسة والبصل والثوم والطماطم، ولكي لا يصرف كثيرًا من الزيت فهو يطلي قطع الباذنجان والبطاطا بالزيت بواسطة فرشاة ويقليها ، وهكذا البصل والثوم... بعدها جاء بتبسي كبير ورصَّ فيه حلقات البصل وفصوص الثوم ثم علته طبقة من شرائح الباذنجان تلته شرائح البطاطا والكوسة والفلفل والطبقة العليا كانت الطماطم، وكان يرشّ على كل طبقة البهارات والملح والمطيبات... ساعدتُه بوضع هذا التبسي الكبير على النار ، وبعد ساعة زمن أضاف له كمية من عصير الطماطم مع تمر الهند والليمون وبعض المطيبات وهدأ النار وتركه ساعة زمن ، بعدها أطفأ النار وقدَّم لي طبقًا شهيًا منه استذوقته رغم أنه بدون لحم ، وضع عدد من الكارتونات في صندوق سيارته ووضع التبسي الكبير وكمية من الصمون (العيش) وتوكل على الله.

عند المساء شاهدته فرحًا مستبشرًا ، فسألتُه عن أخباره ، فأخبرني أن النتائج ممتازة والربح جيد جدًا ، ويحتاج إلى تبسي أكبر ، ولم نجد في السوق تبسي أكبر من هذا ، فاشترى طشت فافون (نوع من الألمنيوم) متوسط الحجم.

استمر بالعمل ووزع وقته بين السوق وإعداد التبسي يوميًا وكراج الشيخ عمر ، ولهذا أصبحتُ لا أراه إلا يوم الجمعة.

بعد عدة أسابيع رأيته واقفًا بالباب ووجهه أصفر ، وقد هزل جسمه... سألتُه عن صحته.

- في الحقيقة يا أخي أحس بتعب شديد وبآلام مبرحة ولم تنفع معي المهدئات والأدوية... راجعتُ الطبيب ، وبعد الفحص طلب مني ضرورة دخولي مستشفى مدينة الطب فورًا وبدون تأخير.

ثم نادى على ابنته ناردين وطلب منها أن تجلب له فلوس من أمها... سلمني مبلغًا من المال قائلاً:

- هذه خمسين دينار لك بذمتي ، أشكركَ لأنها أفادتني كثيرًا ، غدًا سأدخل المستشفى ، وأرجو الاهتمام بعائلتي وحمايتهم من عاديات الزمن وبلاوي الحياة.

في صباح اليوم التالي جاءتنا ناردين تطلب المساعدة لأن أباها لا يقوى على النهوض من الفراش... ذهبنا أنا وولدي الطبيب فوجدنا الرجل خائر القوى لا يقوى حتى على النطق ، فاتصل ولدي بالإسعاف ونقلناه إلى المستشفى.

قرَّر الأطباء استئصال الجزء التالف من الكبد ، لكن أبو ناردين فارق الحياة أثناء العملية ، رحمه الله.

تمَّ نقله إلى بيته ، وكانت دهشتي أن ناردين وأمها لم يتعالى صراخهما ولم يلطما الخدود ويشقّا الجيوب كعادة أهل الجنوب

في العراق ، وإنما اكتفيا بترديد "لا الله إلا الله" ودموعهما تفيض على خدودهما.

بعد ساعتين من الزمن جاء أخوال ناردين فنقلوه إلى الحسينية في الكرادة داخل، وأعطوا مبلغًا من المال لإمام الجامع ليقرأ عليه شيئًا من الذكر الحكيم.

في صباح اليوم التالي نقلوه إلى النجف الأشرف ليُدفن هناك بعد أن زار جثمانه مرقد الإمام علي بن أبي طالب.

وهكذا غادرنا أبو ناردين، وبقيت ناردين وأخوها أنور وأمها يعيشون في بيتهم بما لديهم من مال محدود ، وناردين في الصف المنتهي ، ومازالت الحرب العراقية الإيرانية مستعر لظاها تأكل الأخضر واليابس وتحصد شباب البلدين الجارين حصاد النار بالهشيم.

(٣)

تخرَّج أنور قبل ناردين، ولكنه لم يحصل على عمل، وأصبح مطلوبًا للخدمة العسكرية في جبهات القتال.

جاءتني ناردين والدموع في عينيها:

- عمو الله يخليك أبونا أوصاك بنا خيرًا، فأرجو أن تساعدنا بأمر أخي أنور فليس لنا غير الله وأنت، وأنا مستعدة لأقدِّم ما أقدر عليه، وأنا تحت أمرك.

بذلتُ كل جهدي أن يُنسب أنور إلى القوة الجوية لأنها أكثر أمانًا من جبهات القتال، وقد بدأت حرب الكويت، وتدخلت أمريكا وإنجلترا ومعهما حشد من ثلاثين دولة لغزو العراق بعد قصف مكثف بالطيران وصواريخ كروز... ولأن لديَّ أصدقاء يستطيعون مساعدتي في تنسيبه لمكان أكثر أمانًا... رجوتُ آمر وحدته أن يعمل أنور في الحانوت لأمانته ولكي يستفيد ماديًا وشرحت له ظروف عائلته فساعدنا الرجل كثيرًا وتعاطف معه ومنحه إجازة لمدة أسبوع، وقال له بحضوري: أي شيء تحتاج راجعني مباشرة.

شكرته كثيرًا، أهل الخير مازالوا موجودين ولو خليت قلبت.

الآن يجب أن نحل مشكلة ناردين الفتاة الطيبة الخجولة الفاتنة، وكيفية ذهابها وإيابها إلى كلية الطب بهذا الجو الملتهب وأعمال النهب والسلب والقتل قد بدأت وأخذت بالتوسع مع مرور الوقت ، مما اضطرني أن أكلّف جارنا أن ينقلها بسيارته ويحافظ عليها مقابل ثمن مجزي أدفعه له شهريًا.

مات أبو ناردين وترك حملاً ثقيلاً برقبتي، وأنا أحاول التوفيق بين عملي وعائلتي وبيت ناردين وأهلي... إنها مهمة شاقة ومتعبة في ظروف استثنائية ملتهبة.

كانت حرب الكويت قد بدأت، واختلط الحابل بالنابل، وتعقدت المعيشة وتعقدت معها مشاكل الحياة : لا كهرباء لا ماء لا مواصلات لا اتصالات ، فقد دمَّر الأمريكان وحلفاؤهم البنية التحتية للبلاد بهمجية ووفق خطة مبرمجة لتخلف البلاد في كل المجالات وانتهت باحتلال البلاد بالكامل وسقوط الدولة العراقية... وجاء الحاكم العسكري الأمريكي "بريمر" الذي أمر بحل الجيش والشرطة وقوات الأمن والمخابرات والاستخبارات، وأصبحت البلاد "كل واحد إيده إله" كما يقول السوريون، لا نظام ولا قانون يحمي الناس، وبدأت عمليات النهب والسلب التي شجعها وغذاها الأمريكان بشكل إجرامي علني.

أصبح المركز الرئيس للأمريكان مطار بغداد الدولي الذي يعمل فيه صديقي المهندس الكهربائي الشاطر "خضير" الذي كلفته أخويًا ان يجد معه عملاً بسيطًا لأنور ليعيل عائلته ، وهكذا تعاطف خضير وأوجد وظيفة مصلح كهربائي لأنور في المطار الدولي... الحمد لله والشكر انحلت إحدى العقد.

يخرج أنور يوميًا من الصباح الباكر ويعود عند المساء مستخدمًا سيارة والده القديمة رغم شحة البنزين ، وبين الحين والآخر أساعده بعشرين لتر لاني أحصل على الوقود من دائرتي وفق نظام الكوبونات.

تحسن الوضع الاقتصادي لعائلة أبو ناردين ، واستطاع أنور تسديد أجور سيارة ناردين شهريًا إلى جارنا ، وسارت الأمور بشكل جيد نوعًا ما.

• • • •

ثم حصل ما لم يكن في الحسبان... الصراع الطائفي بين السُّنة والشيعة أصبح علنيًا وعلى أشده ، وباعتبار السيدية معظم سُكانها من السُّنة أخذت تجوب شوارعها ميلشيات شيعية... وردًا على ذلك شكّل شباب المنطقة من السُّنة قوة محلية للدفاع عن السيدية وأغلقوا معظم الطُرق ما عدا مداخل ومخارج مُسيطر عليها.

أثناء عودة أنور من العمل مساء الخميس إلى السيدية أوقفته إحدى السيطرات المتمركزة عند ساحة أسواق الهنداوي وأنزلته من السيارة...

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى بيتنا في الفرع القادم.

- ماذا تعمل؟

- أعمل في مطار بغداد، عامل كهربائي.

- بطاقتك الشخصية

- من أنتم؟!

- نحن من التيار الصدري.

- أنتم تكذبون، لأن خالي مسؤول كبير في التيار الصدري، وقال لي أنه لا علاقة ولا وجود لنا في السيدية... سأتصل به لمعرفة الحقيقة.

صرخ أحدهم في وجهه، وبيده رشاش كلاشنكوف:

- قلتُ لكَ أعطني بطاقتك الشخصية فورًا وإلا أفرغتُ فيك رصاص هذا الرشاش.

مَدَّ أنور يده في جيبهِ وأخرج محفظته وسلَّم بطاقته للرجل... وحالما قرأ الاسم "أنور حيدر كاظم الموسوي" يعمل في مطار بغداد الدولي عامل كهرباء، حتى جنَّ جنونه وأفرغ رصاص رشاشه في جسم الشاب المسكين المغدور أنور، ثم سحلوه وهو مخضب بدمائه ورموه فوق الأزبال في الساحة.

ناردين وأمها في الكرادة عند أخوالها منذُ ثلاثة أيام لتدهور الوضع الأمني في السيدية ، اتصلت بأختي في تمام الساعة السابعة مساءً تسألُ عن أنور ، هل عاد للبيت.

أختي من السياج الفاصل تنادي على أنور دون جواب، طرقت باب الكراج دون جواب، البيت أظلم...

- رجاءً هل سيارته موجودة في كراج البيت ؟

- كلا، غير موجودة.

أخذت أم ناردين تدعو الله أن يسلّم ابنها من كل سوء، وأردفت:

- لقد حذرتُه من عدم الذهاب إلى البيت في السيدية لوحده ولكنه عنيد لم يسمع كلامي والله الساتر.

أم ناردين اتصلت في الساعة التاسعة والعاشرة والحادية عشر بأختي وتلقت نفس الجواب: أنور غير موجود في البيت.

اليوم صباح الجمعة ، وعندما ذهبت أختي لشراء الخبز الحار من المخبز القريب جدًا من بيتنا سمعت أن مجموعة مسلحة ليلة البارحة قتلت شابًا في مقتبل العمر ورمته فوق الأزبال في ساحة الهنداوي... أخبرتنا بالموضوع ، ولكنها لا تعرف من المقتول، إذ تبعد الساحة عن بيتنا بحدود مائتي متر.

بعد قليل اتصلت أم ناردين بأختي،:

- لخاطر الله لحد الآن لم يعد أنور؟

- نعم أم ناردين، لم يعد.

- الله يخليكِ ممكن تسألين الجيران؟

- حاضر... حاضر.

بعد إفطارنا قرَّرتْ أختي أن تذهب إلى أسواق الهنداوي لتتأكد. كلنا عارضنا ذهابها لأننا نسمع أصوات إطلاقات متقطعة هنا وهناك وسيارات الميلشيات تجوب الشوارع وهناك تبادل لإطلاق النار من سطوح المنازل، المهم اتفقت جارتنا الأخرى أم كريم مع أختي على الذهاب لشراء بعض حاجات البيت من الخضر والفاكهة ولمعرفة أي شيء عن أنور... بعد أن ارتديتا العباءة وربطة الرأس ؛ أخذتا تنتقلان بهدوء بجانب أسيجة الدور ، وكلما يشتد إطلاق الرصاص تدخلان إلى أحد البيوت للحماية من الرصاص الطائش ، إلى أن وصلتا إلى أسواق الهنداوي، ومن على بعد عشرين متر شاهدتا جثة شاب مرمية فوق الأزبال لكن الوجه غير واضح المعالم لوجود خرقة عليه.

عادتا على وجه السرعة من خلال البيوت وهما مرعوبتان ترتجفان من الخوف.

- خير؟

- أي خير؟! الجثث تملأ الشوارع والرمي العشوائي مستمر.

- وما أخبار أنور؟

- توجد جثة شاب مرمية على الأزبال، لكني لم أتأكد أنها جثة أنور.

في هذه اللحظة رنَّ جرس التليفون...

- هلو، أختي هل حصلتم على معلومات عن ابني أنور؟!

- صبرك أم ناردين، هل كان أنور يرتدي بنطلون كاوبوي وتي شيرت أبيض وحذاء رياضة أزرق؟

- نعم، نعم... بالضبط هذه ملابس أنور التي خرج بها للعمل.

- أم ناردين أرسلي لنا أخوال أنور بسرعة.

- خير إن شاء الله ؟

- قلت لكِ يا أم ناردين أرسلي أخوال أنور بسرعة الله يخليكِ.

- حاضر حاضر، مسافة الطريق.

بعد ساعة زمن جاء خوال أنور بسيارة نصف حمل تويوتا بيضاء دبل قمارة... خرجت لهم أختي وأفهمتهم أن هناك شك بأن المُلقى في ساحة الهنداوي هو أنور...

- اذهبوا وعاينوا الجثة للتأكد.

- أين ساحة الهنداوي؟

- في الفرع الثاني من هنا على اليمين.

ذهب أخوال أنور على وجه السرعة، وقُرب الساحة ترجلوا من السيارة واقتربوا من الجثة، رفعوا الخرقة، وإذا بوابل من الرصاص يُفتح عليهم من أحد أسطح الدور المجاورة، فخروا صرعى مضرجين بدمائهم.

أصبح الجميع الآن يخافون من التقرب إلى ساحة الهنداوي ، والهنداوي أغلق أسواقه وذهب إلى بيته ليحافظ على حياته.

بعد ساعة اتصلت أم ناردين تستفسر ، ردت عليها أختي:

- لقد جاءوا وذهبوا ليتأكدوا من وجود أنور.

- يعني ماذا تقصدين يا أختي، أين موجود أنور ؟!

- موجود قُرب أسواق الهنداوي.

- ماذا يفعل هناك؟

- لا أعلم، عندما يعود إخوتك سيشرحون لكِ، مع السلامة.

طبعًا لم يعد أخوال أنور ، وأم ناردين تُلِّح بتليفونها الخلوي ولا أحد يرد عليها غير أختي، ولا تعرف ماذا تقول لها.

بعد ساعة زمن ذهبت أختي وأم كريم إلى الخبَّاز جارنا لشراء الخبز ، فأخبرهما أن اثنين من الرجال جاءا قبل ساعة لنقل جثمان الشاب، ولكنهما قُتلا.

أختي وأم كريم من باب معرفة ماذا حصل - الممنوع مرغوب- ذهبتا إلى الساحة فوجدتا جثتي الرجلين قُرب جثة أنور ، فعادتا مرعوبتين والدموع تملأ العيون.

نصحنا أختي أن تغلق هاتفها الخلوي منعًا للإحراج ، وتجنبًا للمشاكل ، ولكنها عنيدة ، وأم ناردين صديقتها وتحبها وتحب

ناردين، فاتصلت بها وأخبرتها أن هناك "سيطرة" قُرب ساحة الهنداوي احتجزت أنور، والآن احتجزت أخواله.

بعد ساعتين جاءت مليشيا مسلحة - يُقال أنها من مدينة الصدر - بعدد عشرة سيارات تحمل مقاتلين مسلحين وحصل تبادل إطلاق نار بينهم وبين أسطح بعض المنازل، تمكنوا أخيرًا من سحب الجثث بعد التعرف عليها ونقلها إلى الكرادة.

أم ناردين شاهدت جثث ابنها وأخويها... سقطت مغشيًا عليها ودخلت في غيبوبة، ونُقلت على الفور إلى مستشفى أهلي في الكرادة بأخر نفس.

أمَّا المسكينة ناردين فصرخت صرخة مدوية وسقطت هي الأخرى على الأرض... حاولت النساء السيطرة عليها، لكن دون فائدة، إلى أن فقدت الوعي بعد أن نتفت شعر رأسها ومزقت ملابسها ولطمت خدودها، فقامت إحدى النساء بسترها بعبائتها، ونقلوها إلى إحدى الغرف لإنعاشها.

أم ناردين متعبة وفِي العناية المركزة، والدكتور يقول:

- الله يستر، أُصيبت بجلطة قوية في القلب، ونخشى أن تتكرر.

أعطوها مهدئات وكيس مغذي، وكلفوا إحدى الممرضات بمراقبة ضغطها باستمرار.

أفاقت ناردين من الصدمة، وعاودت البكاء والأنين... سألت عن أمها، فأخبروها أنها في الإنعاش تعاني من أزمة قلبية حادة.

غسلت وجهها وبدَّلت ملابسها، وذهبت برفقة صديقاتها إلى مستشفى مجيد الأهلي القريب من بيتهم.

أمسكت بيد أمها وقبَّلتها...

- ماما أرجوكِ ابقي لي، أرجوكِ لا ترحلي وتتركيني وحيدة في هذه الدنيا... ماما أتوسل إليكِ... حبيبتي ماما هل تسمعينني؟

تفتح أمها عينها جزئيًا وترى شبح ناردين وهي لا تقوى على النُطق سوى بكلمات مبهمة متقطعة قد تعني: أ... ن... و... ر. ثم تغط في سبات عميق.

يأتي الطبيب ويتفحصها ويهز رأسه...

- خير يا دكتور؟

- البقية في حياتكم.

وهكذا مات أبو ناردين قبل فترة قصيرة، ومات أنور مغدورًا، وماتت أمها بالجلطة بسبب الصدمة الهائلة لمقتل ابنها الوحيد وإخوانها.

لم يبقَ لناردين غير الله في هذه الحياة، لأن أعمامها أحدهم أُعدم والآخر هرب إلى إيران مجهول العنوان.

(٤)

ناردين الفاتنة الرقيقة ، لكن أعصابها قوية ، وتتحلى بإيمان يكفيها لمقاومة عاديات الزمن ، بعد أسبوع تماسكت وفتحت بيتهم ونظفته بمساعدة أختي وأم كريم ، وبعد ثلاث ساعات من التنظيف جاءت مع أختي إلى البيت فواسيناها ورحبنا بها وقلنا لها : كلنا أهلك وأحبابك وبيوتنا مفتوحة لك ونحن في خدمتك لأنك ابنتنا...

- لقد قررتُ أن أعتمد على الله وعلى نفسي وعلى وقفتكم معي وحمايتكم لي لاني فعلاً ابنتكم ، لم يبقَ على تخرجي سوى ثلاثة شهور وأتخرج طبيبة من كلية طب المستنصرية ، وأنا أملك مبلغًا من المال يكفيني وزيادة ، كما يمكنني أن أبيع بعض أثاث البيت الزائد عن الحاجة وخاصة أجهزة التبريد ولو ليس لها سوق الآن بسبب عدم توفر الكهرباء ولكن إذا كانت الحاجة ماسة سأبيعها.
- ناردين ، بإمكانك أن تعيشي معنا ، حالكِ من حالنا.
- شكرًا عمو... أنا ارتاح في بيتنا ، مع ذكرى أمي وأبي وأخي ، ولكي أحافظ على البيت من السرقة.

بادرت أم كريم:

- لا، كيف تعيشين لوحدك في هذا البيت الكبير، ستأتي ابنتي "فائزة" كل ليلة تنام معكِ وتساعدكِ في أمور البيت، أما الأكل والشُرب...

بادرت أختي:

- غدائها يوميًا عندنا...

أكملت أم كريم:

- وعشاؤها أرسله لها يوميًا مع ابنتي فائزة. ناردين نحن أهلكِ فلا تتحرجي منا الله يخليكِ.

- خالة الله يخليني بعد لمن إذا الكل تركوني وذهبوا... أمي ولدتني في هذه الدنيا وعافتني للألم والضيم، لا أعرف ما الذنب الذي فعلتهُ في حياتي لأُعاقب كل هذه العقوبات العظيمة وأتحمل كل هذا العذاب وأنا في عزّ شبابي.

ناردين الوردة المفتحة الجميلة وجهها أصبح شاحبًا لا نضارة فيه وكثيرة التفكير والسرحان وقليلة الكلام، نحاول كلنا جاهدين أن نخرجها من عُزلتها ونشعرها أننا فعلاً أهلها.

في أمسيات الليالي عندما ينتابها الضجر تأتي لتسهر معنا مع فائزة التي تعودت المبيت معها، وتدور أحاديث كثيرة، إذ نتجاذب أطراف الحديث، وأنا أكثرهم أبذل جهدًا للترفيه عنها قدر الإمكان ورفع معنوياتها... وفِي إحدى الليالي وكلنا جالسين في الصالة، ناردين تجر الحسرات والآهات وتقول:

- آه يا زمن، ظالم يا زمن... هذه هي الدنيا لو يوجد غيرها... معقولة الله يرضى على كل هذا الظلم وما ينصف عبادة، إذا لا يقدر ان يحميهم لماذا خلقهم وتفرك بيديها وتخرج الكلام من أعماق قلبها وتقوله بصوت متهدج يقطع نياط القلب.

- اللي خربه الإنسان يصلحه الزمن، وأسمعي مني هذه الحكاية الصغيرة الحقيقية من الواقع الذي أنا عشته يا ابنتي :

چثاثة واحة غناء تقع بين الرمادي وكربلاء وتتبع إداريًا لكربلاء ، تشتهر بينابيعها وعيون الماء الصافية الرقراقة ، وبكثرة نخيلها الباسق وأشهرها الشويثي الذي يضارع البرحي في جماله وحلاوته وغلاء سعره... كريم انضباط عسكري يعمل معي في الحبانية الابن البكر لشيخ چثاثة، قال لي إن أباه يدعوني لزيارة الواحة والتمتع بجمالها الأخاذ... وبعد أن عشت ساعات ما أروعها وما أحلاها، ونحن نتناول الغداء دخلت فتاة في ربيعها السابع وهي تبكي وتشكي لأبيها أختها الكبيرة رشيدة التي ضربتها، وبعد دقائق قليلة دخلت علينا شابة غاية في الجمال والرشاقة وسلَّمت بكل أدب وحياء وأرادت الخروج لكن أباها بادرها بالسؤال : لماذا ضربتِ أختك يا رشيدة ؟!... قالت : يا أبتي إن عين الماء الصافية كالزلال خلف دارنا هي مرآتي التي كل يوم أتزين وأنسل شعري عليها... يا أبتي وأنا أمشِّط شعري وأعدل زينتي رمتْ أختي فريدة حجرًا في العين فعكَّرت وجه العين وأتلفت صفائها ، وأنا غاضبة منها وأريد

منك ومن أخي كريم أن تعيدا العين لصفائها الآن لأكمل زينتي... ابتسم الأب الحكيم، وقال: يا بُنيتي لا أنا ولا كريم ولا كل العشيرة نستطيع أن تعيد صفاء العين الآن... يا ابنتي ، صفاء العين يحتاج إلى وقت ، وثقي يا رشيدة أن الزمن كفيل بعودة صفائها الذي تحبينه، فاصبري يا بنيتي، فالصبر جميل.

- الزمن يا ناردين كفيل بإصلاح الضرر يا ابنتي مهما عظم، تحدث أحيانًا يا ابنتي كوارث طبيعية مثل الزلازل والهزات الأرضية والفيضان والحروب المدمرة التي يذهب ضحيتها أعداد هائلة من البشر وتدمِّر البنية التحية للبلدان المتحاربة ، ولكن مع الزمن تعود هذه البلدان إلى حياتها الطبيعية ، ولا تنسي أن الله عز وجل قد أنعم على الإنسان بنعمة النسيان ، فاصبري يا ابنتي ، فالعقل بالصبر والصبر مفتاح الفرج ، وركِّزي في دراستك وموعد تخرجك وعملك ، وغدًا سأقص عليك قصة أخرى لأن الذي يسمع مصائب الناس تهون عليه مصيبته.

تقضي ناردين معظم وقتها بين الدوام في كلية الطب والمذاكرة في البيت وقراءة بعض القصص الرومانسية التي تستلفها من مكتبتنا ، وفِي أمسيات الليالي تزورنا لساعات محدودة للترفيه عن نفسها ولطرد الكآبة التي تخاف منها ، ولاحظت أنها لا تفكر في زيارة بيوت أخوالها، وعندما سألتها أجابت بحسرة:

- نساؤهم لم يحببن أمي يومًا، وإنما كنُّا أنا وأمي ثقيلتين عليهن ولكن أخوالي وخاصة خالي الصغير كان رحمه الله يحبنا كثيرًا ويتفقدنا خاصة بعد وفاة الوالد رحمه الله وأدخله جنات الخلد.

ثم أردفت:

- عمو، هل ممكن في عيد الأضحى تأخذني لزيارة أبي وأمي وأخي؟
- بكل ممنونية، ولا تنسي أن أباكِ كان صديقي العزيز.
- عمو، ثمة أمر آخر أحب أن أفاتحكَ به، فأنتَ والله بمقام أبي.
- قولي يا ناردين، كلي آذانٌ صاغية.
- في كلية الطب أستاذ شاطر خريج لندن حديثًا ومتخصص في الأمراض الخبيثة أي السرطان، حسب فهمي ودليلي عقلي وقلبي فهو إنسان طيب بسيط شريف ولكن لا أعرف شيء عن عائلتهِ وعن أصلهِ وفصلهِ، كل الذي أعرفه عنه أنه من مدينة ديالى من ناحية الزهيرات.
- اطمئني ناردين فأنا عندي أصدقاء في هذه الناحية يعرفون كل الناس، فالحاج فليح صاحب بساتين وعلوة فواكه، كل الناس تعرفه وتحترمه، وأولاده أثناء الحرب العراقية الإيرانية كانوا جنودًا عندي يحترمونني ويتمنون أن يردوا جزءًا من فضلي عليهم، ويعتبرونني بمقام عمهم، ولهذا

سأرسل لهم خبرًا بزيارتهم ثاني يوم من أيام العيد للاستفسار عن دكتور لؤي وأهله.

فرحت ناردين فرحًا غامرًا، وقبَّلتني، وقالت:

- عمو، فعلاً أنت بمكانة أبي، أشكرك وممنونة منكَ... ولكن أرجوك أنت وعدتني أن تحكي لي قصة قصيرة تسليني وترفع معنوياتي، ممكن تحكيها لي هذه الليلة؟.
- الليلة أنا مشغول، وأريد الاتصال بالأخ جاسم ابن الحاج فليح في الزهيرات للاستفسار عن دكتور لؤي ولتحديد موعد زيارتهم في العيد ، فأرجوكِ أجلي الموضوع اليوم ، وفي أقرب فرصة سأحكي لكِ الحكاية وبكل ممنونية.
- تسلم عمو الله يخليكِ لنا ويحفظك يا رب ، ولو أن دعائي مجروح لأنه لم يحفظ لي أبي ولا أمي ولا أخي ولا أخوالي، وتركني وحيدة فريدة في هذه الدنيا.
- ناردين ابنتي العزيزة خلي عيونك بعيون الله وقولي يارب ، في المواقف الصعبة يا ابنتي الإيمان ضروري.
- عمو على ذكر الإيمان أحب أن تشرح لي شيئًا عن ما بعد الموت.
- ابنتي تقترب الأديان بالتفسير ولكن بشكل عام أنا أفهم تفسير الدين الصابئي أكثر ، وعمومًا المسلمون يعتقدون أن الجسد خُلق من تراب ويعود إلى تراب والروح تذهب إلى البرزخ

لغاية يوم القيامة حيث تُبعث العظام وهي رميم وتعود الروح إليها لتبعث بها الحياة من جديد، هذا باختصار شديد... أما الصابئة، ونحن نسمي أنفسنا "الصابئة المندائيون"، فكذلك خُلق الجسد من تراب ويعود للتراب، أما الروح ونحن نسميها النفس (النشماثة) أي النسمة وهي قبس من الله طاهرة نقية لا تشوبها شائبة ولا تُحاسب ولا تموت، ونعتبر الروح هي مجمل الفعاليات التي يقوم بها الإنسان من المهد إلى اللحد والتي تتلبس النفس، والروح هذه تُحاسب وإذا كانت حسناتها أكبر من سيئاتها تلتحق بالنفس وتشكل النسمة وتذهب إلى الجنة (عالم الأنوار) إلى المثيل السني (ملاك أثيري) الذي أُخذت منه عند الصيرورة لتحيا حياة ثانية بدون أمراض أو أوجاع، وبدون موت ثاني... وأعدك يا بنيتي أن أشرح لكِ مثل هذه الأمور بالتفصيل الممل لكن على راحتنا، المهم أن تهتمي بتخرجك القريب إن شاء الله يا دكتورة، والله يا ابنتي لولا ديننا مغلق؛ لزوّجتكِ من أحد أولادي فأنتِ تستحقين كل الخير يا بنت الطيبين، ولكن ما باليد حيلة، بالوقت المفروض الأديان تجمع وتوحد الناس لأن منبعها واحد أصبحت تفرق الناس. المشكلة الفرقة أصبحت في الدين الواحد مع الأسف؛ سُنة وشيعة، وبهذه الطائفية المقيتة راح ضحيتها مع الأسف أخوكِ أنور... الإيمان حلو يا ابنتي، والإيمان بوجود حياة ثانية رائع لأنكِ في هذه الحالة تعيشين

حياتين، حياتنا في هذه الدنيا ولنا أمل ان نعيش حياة ثانية في الجنة، وهذا شيء جميل يبعث على الأمل والراحة النفسية وأرجو أن تؤمني بوجود الجنة إكراما لأهلك ولترتاح نفسكِ، وهذا شيء حسن يا ناردين.

- صدقت عمو، وأنا أشكرك لأنك أرحتني وبعثت السرور في نفسي... ولكن قل لي بربك، لماذا هذه التفرقة وربنا واحد وكلنا عباده نأتمر بتعاليمه ووصاياه.

- ابنتي الدين عند الله حسب فهمي ودراستي هو توحيد الله بالمطلق والتمسك بمكارم الأخلاق التي أوصانا بها خالقنا، أما ما هو غير ذلك فهو نوعٌ من التدين عبارة عن شعائر وطقوس وتشريعات أوجدها رجال الدين الأجلاء كوسيلة لتحقيق غاية ثم حولوها لغاية، وبمرور الزمن أعطوها قدسية وأضافوها للدين فضخموه وأثقلوه وعقدوه، ومن هنا حدثت الفرقة وتأسَّست المذاهب.

- عمو أنا يشرفني أن أكون واحدة من عائلتكم وأستطيع تجاوز كل المنغصات، فأنا موحِّدة وأؤمن بأن الله واحد أحد لا شريك له في ملكه وأطبِّق مكارم الأخلاق التي تربيت عليها في بيتنا، إذن ليس هناك اختلاف بين الناس الموحدين ذوي الأخلاق الحسنة والتربية الصحيحة.

- ناردين لا تستعجلي الأمور، العافية درجات، ويصير خير، ودعينا نسأل عن دكتور لؤي أولاً والله كريم.

اتصلتُ بصديقي العزيز أبو نصيف في ديالى في ناحية الدابون وطلبت منه تليفون الأخ جاسم فليح فأوصلني به وقلت لجاسم: هل تعرفون دكتور لؤي ، فأجاب : دكتور لؤي ابن الحاج جميل... فأشرت ناردين برأسها، نعم أبوه اسمه جميل.

- مضبوط، دكتور لؤي جميل.
- هذا جارنا، ونِعمَ الجار، وأبوه صديق الحاج أبي.
- هل يمكنني الحديث مع والدك؟
- إنه معك.
- شلونك حجي، شلون كيفك،؟
- الحمد لله، نشكره.
- أبو جاسم، الله يخليك نحب نزوركم يوم الجمعة، ممكن؟
- على الرحب والسعة وأهلاً وسهلاً ومرحبًا ، نفرش لكم الأرض ورد.
- دع جاسم ينتظرنا في بعقوبة في مدخل جسر بعقوبة، الساعة العاشرة صباحًا.
- حاضر... حاضر.

(٥)

وصلنا إلى بيت الحاج فليح أبو جاسم فاستقبلونا استقبالاً رائعًا أدهش ناردين وبعث السرور في قلبها.

- عمو هؤلاء الناس يحبونكم كثيرًا.

- ابنتي أنا صديقهم وحافظت على أولادهم خلال سنين الحرب التي احترق فيها الأخضر واليابس.

ناردين والعائلة دخلنَّ إلى الحوش، وأنا وجاسم والحاج جلسنا في غرفة الضيوف، هم ناس تخلقوا بأخلاق الريف العراقي...

- أبو جاسم من لُطفك، أحب أن أسألك عن دكتور لؤي وعائلته هناك مشروع زواج، ناردين بمثابة ابنتي، إنها ابنة صديقي العزيز رحمه الله... وحكيتُ له قصة أهلها الحزينة، فقال:

- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، كل نفس ذائقة الموت يا أخي... لؤي من عائلة محترمة، أخلاقه مثل أخلاق ولدي جاسم، وأنت تعرف جاسم جيدًا، لؤي انشغل بالدراسة وما شاء الله أصبح طبيبًا أخصائيًا معروفًا ، وجاسم انشغل بنسج بساتين الحمضيات والحمد لله خيرٌ من الله، هؤلاء ناس معروفون وأهل خير وعِلم وأخلاق ومروءة، ونحن نحبهم وهم أيضًا يحبوننا، ولؤي عملة نادرة؛ لو خطب إحدى بناتي لكان يوم

السعد لنا، ولكن الزواج قسمة ونصيب، ومبروكين والله يتمم بالخير.

تناول الجميع وجبة غداء دسمة، وبعد شرب الشاي ذهبنا إلى أكبر بستان حمضيات في ديالى يملكه الحاج فليح ولهم بساتين برتقال أخرى - الله يزيدهم - ويملكون أيضًا علوة تصدير برتقال لمعظم مدن العراق، بمعنى أن الحاج فليح يضمن الكثير من بساتين الزهيرات وأبو صيدا وخرنابات المشهورة بزراعة البرتقال.

ملأ جاسم قفصًا من البرتقال، وقفصًا آخر مشكل نومي حامض أي ليمون ونومي حلو وكريب فروت وسندي، وقفص ثالث خوخ أصفر وأجاص، وقفص رابع عنب من الأنواع الممتازة، وسلة تمر برحي، جاسم يرتّب الأقفاص في صندوق سيارتي الكابرس ستيشن ونعود إلى البيت فتخبرنا أم جاسم أن الدكتور لؤي وعائلته يودون زيارتهم لغرض التعرف بنا.

أبو جاسم يرحب بالضيوف الأعزاء جيران العمر، الأم وبناتها يذهبنَّ إلى الحوش كالعادة، ودكتور لؤي وأبوه يجلسان معنا في الصالة.

- تشرفنا بمعرفتكم، والود ودنا ومعنا أبو جاسم وجاسم أن نحدِّد وقت لزيارتكم في بغداد لخطبة الدكتورة ناردين إلى ولدنا الدكتور لؤي.

- أبو سعد ، أنتم وبيت أبو جاسم تشرفوننا وأهلاً وسهلاً بكم ولكن أحتاج قليل من الوقت لأتكلم مع ابنتنا ناردين.

تحدثتُ مع ناردين:

- ابنتي، هل أنتِ موافقة على زواجكِ من دكتور لؤي ؟!.

- نعم عمو.

- هل شرحتِ له كل ظروفك العائلية والمادية ؟!.

- نعم، يعرف عني كل شيء، وأنا أيضًا أعرف عنه كل شيء، واليوم اكتملت المعرفة بهذه الزيارة المباركة إن شاء الله ، وهو أستاذي في الكلية وأنا تلميذته المفضلة لشطارتي ، وفارق العمر بيننا خمس سنوات فقط.

عُدنا إلى بغداد محمَّلين بأنواع الفواكه الطازجة وخبز التنور المتميز بحجمه الكبير حتى أطلق عليه أولادنا "الخبز العملاق" وأنواع المربيات والعسل ، سعادتنا ونحن نشمُّ رائحة الخوخ الذهبي الذي لا يتوفر مثله في بغداد... أعطينا كمية من كل شيء إلى ناردين ، ومقدار من كل شيء من الفاكهة إلى الجيران الأعزاء، ومع هذا بقى الشيء الكثير.

زارنا الدكتور لؤي خلال الأسبوع، وتناولنا الغداء معًا، وذهب مع ناردين وزوجتي إلى الكرادة لشراء حلقات الزواج والاتفاق على الشبكة.

دكتور لؤي يملك عيادة في الشارع المشجر في الباب الشرقي ساحة النصر، ولديه عدد كبير من المراجعين يوميًا لأنه طبيب مشهور بعلاج أمراض السرطان في مستشفى مدينة الطب الحكومية ومستشفى الراهبات الأهلية، ولديه شقة صغيرة في الأعظمية مساحتها بحدود تسعين متر.

اتفق العروسان على إعادة تأثيث بيت ناردين بغرفة نوم إيطالية جديدة وطقم قنفات من النوع الممتاز للصالون وتغيير الستائر والشراشف (الملايأت) ومراتب النوم مع شراء سجادة صينية بارزة النقوش لغرفة الضيوف، كما اتفقا على كافة الترتيبات الأخرى من مُقدم ومُؤخر وكمية الذهب ونوعه، على أن تتم الخطوبة يوم الجمعة في بيتنا بمباركة الجميع.

نتفاجأ أن أبأ لؤي قد جلب لنا كما يسموها في ديالى "علاوة" بمعنى كمية من الفاكهة المتنوعة ونحن مازالت الثلاجة مملوءة على أخرها بعلاوة أهل جاسم عند زيارتهم في الجمعة السابقة.

- الخير خيرين، العلاوة لا تُرد أبدًا، لو حتى تُرمى في الشارع ومن هنا ورايح دكتور لؤي مسؤول عن تجهيزكم بأنواع الفاكهة وخبز التنور ومربيات أم لؤي وأم جاسم.

يتزوج دكتور لؤي ودكتورة ناردين ويسافران إلى شمال العراق لمدة عشرة أيام لقضاء شهر عسل، لأن دكتور لؤي لا يستطيع ترك مرضاه أكثر من ذلك.

تنبهر ناردين بمناظر الجبال العالية لأنها لأول مرة تراها، وتندهش بالطرق الملتوية وبالمساحات الخضراء الجميلة وبالورود الطبيعية والأشجار الباسقة وأشجار الفاكهة وعرائش العنب وأنواع التين الأسود والأخضر والوزيري ولكل نوع مذاق خاص، وتنظر إلى الشلالات وعيون الماء العذبة الباردة والمناطق السياحية البديعة والخدمات الراقية والنظافة.

- لؤي بربك، أصدقني القول، هذه الأراضي الرائعة عراقية وجزء من وطني ؟!

- نعم... نعم... ولا تنسي أننا في فصل الربيع، هذه المناطق من شمال العراق وتسمى كردستان العراق كما يحلو لإخوتنا الأكراد تسميتها، هذه المنطقة يا ناردين تغطيها الثلوج في الشتاء ويختفي قسم من هذا اللون الأخضر في الصيف، ولكن بشكل عام يبقى شمالنا الحبيب جميل وزاهي والطقس معتدل وأكثر برودة من وسط وجنوب البلاد.

• • • •

تتأمل ناردين في أيام الماضي وأيامها الحالية:

- عشرة أيام جميلة لا تنسى ما أروعها وما أسعدني بزوجي حبيبي لؤي الإنسان البسيط الطيب المثقف الذكي الكريم النفس واليد ، يساعدني في كل شيء ويقدِّمني على نفسه ويسمعني أحلى الكلام وأعذبه ويتمنى ليَّ الخير كله، إن الله سبحانه وتعالى يقطع من هنا ويوصل من هنا، لقد عوضني الله بزوج جميل الطلعة، حلو الحديث، أنيق، كريم، يحبني ويبذل كل جهد ممكن لإرضائي وإسعادي... زوج حنون، أمين، صادق، لديه من الحب والعاطفة ما يكفيني ويفيض... كم أنت كريم يا رب، ألف شكر لكَ يا خالقي على هذه الهدية الرائعة، وواجبٌ عليَّ أن أكون بالمقابل هدية أروع وأجمل، فالمرأة يجب أن تكون أجمل وأكثر رقة وعاطفة وأكثر صبرًا من الرجل، أما هو فيجب أن يكون كما يقول الحكماء أكبر عمرًا وأكثر مالاً وأوسع إدراكًا وعقلاً، وأنا أمي رحمها الله أوصتني خيرًا بزوجي، فقالت لي: يا ناردين يا ابنتي العزيزة، عندما تتزوجين ممن تحبين ؛ هذه وصيتي إليكِ فاحفظيها عني.

- يا ابنتي الغالية لا تفشي لزوجكِ سرًا، ولا تعصي لهُ أمرًا.
- احفظي بيته وماله، وأحبي أهله وعياله.
- يا ابنتي الزواج بالقناعة، والعشرة بحُسن السمع الطاعة.
- تفقدي مواعيد طعامه، والهدوء في منامه

- يا ابنتي آثري رضاه على رضاكِ، وهواه على هواكِ، وألا تقع عيناه منكِ على فعل قبيح، ولا يشمُ منكِ إلا أطيبَ ريح، وكوني له أكثر إعظامًا يكن لكِ أشد إكراما.
- وعمومًا كوني له امرأة صالحة، ليكن لكِ زوجًا صالحًا.

- هذه وصايا أمي حفظتها عن ظهر قلب، رغم التطور الحاصل في كل مفاصل الحياة، ورغم أن زوجي إنسان مثقف وطبيب وأنا أيضًا طبيبة، ولكن تبقى قواعد أساسية متأتية عن خبرة ودراية وتجربة من الحياة، وكما كانت أمي تردِّد دائمًا: يا ناردين، هذهِ هيَّ الحياة تعلمي منها المفيد يا حبيبتي.

• • • •

يعود العروسان إلى بيتهما ويباشران الدوام، لؤي في النهار في مستشفى مدينة الطب وفي المساء في عيادته التي أصبحت مشهورة في شارع المشجر في الباب الشرقي قُرب ساحة النصر حيث مجمع الأطباء الاخصائيين، وناردين تعمل في مستشفى الكرخ للولادة وأحيانًا في المساء تذهب مع لؤي لعيادته وليس عندها أحد تزوره سوى نحن، وبين أسبوع وآخر يذهبون إلى ناحية الزهيرات لزيارة أهل لؤي ونادرًا ما يباتون عندهم وعند عودتهم يأتون محملين بأنواع الفواكه والمأكولات التي تعدها لهم أم لؤي.

حياة هادئة سعيدة ولكن ناردين أحيانًا تشكي من الوحدة لانشغال لؤي عنها بالدوام والعيادة فهو لا يعود للبيت إلا في العاشرة ليلاً، تبث بعض همومها لنا لأننا أصبحنا أهلها.

- يا ناردين يا ابنتي أنتم في بداية المشوار وفي مرحلة البناء وكل بداية يا ابنتي صعبة وتحتاج إلى صبر وطول بال، مع الوقت ستُحل كثير من عقد الحياة وتبقى ذكرى، المهم أنتما تعيشان الآن منسجمين متفاهمين أحدكم يحب الأخر ، فحافظي يا ابنتي على هذه النعمة التي حباكم الله بها، واشكرا فضل الله عليكما، ومنه الخير والبركة.

• • • •

وفِي غمرة سعادتهما يأتيهما خبر مؤسف من ناحية الزهيرات بوفاة والد لؤي بالجلطة القلبية.

يسرع لؤي إلى البيت وهو في حالة صعبة والدموع تنهمر من عينيه ويخبر ناردين بوفاة والده بالجلطة، ويطلب منها أن تهيئ نفسها ليذهبا إلى الزهيرات، تصرخ ناردين لأنها تحب عمها الطيب الحنون وإكراما ومواساةً للؤي المتعلق بوالده.

جاءتنا ناردين إلى البيت ودموعها تفيض من عينيها...

- خيرًا ناردين؟

- الحاج أبو لؤي توفى بجلطة، وأرجوك عمو مرافقتنا إلى ناحية الزهيرات لأن لؤي لا يقوى على سياقة السيارة، أعصابه مهزوزة ودموعه لا تتوقف.

- حاضر... حاضر عمو... دقائق وأكون جاهز

بعد ساعة زمن وصلنا إلى أهل لؤي ووجدنا الحاج مسجى والدكتور صديق لؤي بجانبه، يحضن لؤي ويبكي الاثنان...

- دكتور لؤي اعذرني، لم تنفع كل الإسعافات الأولية لإنقاذه، لأني وجدته قد فارق الحياة، الجلطة كانت حادة ومع هذا أجريتُ له كل الإسعافات الممكنه دون فائدة، ولا جدوى من نقله للمستشفى لأنه فارق الحياة، سأذهب إلى المستشفى لإكمال شهادة الوفاة وأنتم جهزوا الجثمان لأن إكرام الميت دفنه.

يحضر جمع من الأهل والأقرباء والمعارف ويتكفل الحاج فليح بنقل الجثمان إلى الجامع لإجراء مراسيم التكفين، ويتحرك الجميع إلى مقبرة النجف ويعودون لنصب سرادق مجلس العزاء الذي يستمر ثلاثة أيام متتالية.

يكمل لؤي وناردين أسبوع الفاتحة ثم يعودان إلى بيتهما مكسوري الخاطر.

لؤي يفكر بهدوء وروية ويتذكر ما حلّ بحبيبته ناردين وكيف فقدت أباها وأخاها وأمها وأخوالها في سنة واحدة، ويحمد الله

ويشكره، على كل حال قضى أهون من قضى، وتستمر الحياة لأن هذه هي الدنيا فيها الحلو وفيها المر وكما تضحككَ الدنيا تبكيكَ، يوم لكَ ويوم عليكَ، فلا تجزع إن كانت عليكَ ولا تبطر إن كانت لكَ... الحديث هذا كان يسمعه لؤي في مجلس والده رحمه الله وفِي مجلس الحاج فليح.

يباشر دكتور لؤي أعماله وكذلك دكتورة ناردين باشرت دوامها في مستشفى الكرخ للولادة بعد انتهاء مجلس العزاء.

في الأسبوع الثاني يذهبان لزيارة أهلهما في الزهيرات والاطمئنان على صحة أم لؤي ، وتجلس العائلة بعد الغداء لشرب الشاي وتجاذب أطراف الحديث، فتقول أم لؤي،:

- أبوكم رحمه الله من أغنياء الناس، ويملك أملاكًا كثيرة وعدة بساتين عامرة وأموالاً كما تعرفون ، فعليك يا ولدي لؤي التفاهم مع أختكَ الوحيدة طبقًا للقانون والشرع ليأخذ كل منكما نصيبه.

- أمي الغالية بعد انتهاء الأربعين نتكلم بهذا الموضوع بعد أن تهدأ الأمور ويخفُّ علينا المصاب، وعمومًا هذا البيت يبقى لكِ ويُسجل باسمكِ ولكِ أيضًا الثُمن كما ينص الشرع وبعد الأربعين سأكلّف أحد أصدقائي من المحامين لإنجاز القسمة الشرعية، والله أرحم الراحمين، والآن لنقرأ جميعًا الفاتحة على روح الوالد.

مساء الأحد يزورنا لؤي ونادين ويتناولان العشاء معنا لأن هذا اليوم يصادف عطلة وطنية، ويدور الحديث بين الجميع في مختلف المواضيع وخاصة الخدمات التي تراجعت كثيرًا، وعن تخلف التعليم وتفشي الأمية بينما كان العراق من الدول المتقدمة في التعليم والقضاء على الأمية ، وتخلف الصحة وندرة الأدوية وكثرة الأمراض الخبيثة بسبب إشعاع اليورانيوم لاستخدام الأمريكان أسلحة محظورة دوليًا في ضرب العراق، هذه أخلاق الأمريكان أليس هم من ضرب مدن اليابان ناكازاكي وهيروشيما بالقنابل الذرية أم غيرهم، إنهم الأمريكان لعنة الله عليهم.

تبادر ناردين الكلام:

- عمو سبق أن وعدتني أن تحكي لي قصة قصيرة عن حادثة قلتَ إنها تخفَّف عليَّ مصابي بأهلي بعد أن حكيت لي قصة الزمن القصيرة التي أعجبتني كثيرًا لأن فيها حكمة وموعظة حسنة.
- طيب يا ناردين سأحكي لكِ، ولكن شرط أن تنصتوا كلكم لسماع القصة، والذي لا يرغب بالسماع فليترك الصالة.

فصاح الجميع:

- كلنا آذان صاغية لكَ، لأن سوالفك حلوة.

- اليوم أحكي لكم قصة صغيرة عن الرجل الذي حاول قتل القطار ، وفِي فرصة أخرى سأحكي لكم القصة التي وعدتك بها ياناردين، وعليك أن تذكّريني بها واسمها "رأس المال".. موافقون؟!

- نعم موافقون.

- سعدون رجل حطَّاب، لديه زوجة وطفل رضيع رزقه به الله، وكل ما يملكونه في هذه الدنيا كوخ من الصفيح والطين ، وبقرة وحمار ، يقع الكوخ في أطراف المدينة قُرب سكة القطار النازل للبصرة والصاعد لبغداد... يحمل سعدون على حماره الحطب يوميًا ليبيعه في المدينة بدارهم قليلة، ليشتري بها الطعام لهم ، والبرسيم والشعير للبقرة ، لأن إفطارهم وعشاءهم وحليب أبنهم منها ، والباقي حصة الحمار... يحطب كل يوم من المزارع والأكمة التي تقع عبر السكة الحديدية.. البقرة ترعى في الأرض الفضاء المجاورة للسكة، وذات يوم عبرت السكة في لحظة مرور القطار فدهسها فماتت ، ولحقت أضرار بمقدمة القطار ، فغرَّموا سعدون عشرين دينارًا في ذلك الزمان عندما كان الدينار دينارًا ، فاضطر الرجل لبيع الحمار ليخلص نفسه من السجن... سعدون يحمل الحطب على ظهره يوميًا وبكمية قليلة يبيعها في سوق المدينة بدارهم قليلة جدًا لا تسد حاجتهم من غموس وحليب للطفل الرضيع لأن حليب الأم شحيح لا يُشبع الطفل،

بسبب قلة الزاد... وظلَّ الحال هكذا حتى هزلَ هو وزوجته ومرض الطفل... طلبَ سعدون من زوجته أن تساعده بنقل كمية من الحطب معهُ يوميًا إلى السوق ليحصلا على دريهمات أكثر، فأهملا صيانة الكوخ...

-القطار يمر يوميًا في ذهابه وإيابه فيهز الكوخ هزًا، وفي ليلة غزيرة الأمطار مرَّ القطار مسرعًا فهوى الكوخ عليهم وهم نيام، فزَّ سعدون مرعوبًا وقد كُسرت ساقه، ونهضت الأم وهي تلتمس طفلها فتحسست دمًا ساخنًا يغطي رأسه ووجهه. تحطم الفانوس وساد الظلام الدامس، انتظروا ساعات حرجة ومع أول خيط من خيوط الصباح وجدت الأم أن وليدها غارقٌ بدمهِ وجسمه بارد وقد فارق الحياة، وسعدون يصرخ من شدة الألم.

ماذا هم فاعلون؟! قتل القطار البقرة، وبسببهِ بيع الحمار، وتهدم الكوخ، وضاع ولدهما الوحيد... مرضت الأم حزنًا وكمدًا على ولدها، وسعدون لا يستطيع أن يوفر الغذاء والدواء، وبعد طول معاناة ماتت الزوجة.

حزن سعدون حزنًا شديدًا، ولعن الأقدار، لعن القطار الذي كان سببًا في كل ما أصابهم من مصائب، وقرَّر أن ينتقم منه. فبحث بين الأنقاض فوجد فأسه، مسكه بقوةٍ واتكئَ على عكاز واستجمع قواه وذهب ليقتل القطار.

توسط سعدون السكة مُنتظرًا عدوه اللدود القطار، والذي جاء مسرعًا... فهل يا ترى تمكَّن سعدون من قتل القطار ؟!... وهذهِ هيَّ الدنيا يا ناردين.

- عمو لا فُض فوكَ كما يقول المثقفون، والله حكاية حلوة، وأحب أن نسمع منكَ حكاية "رأس المال" بأقرب فرصة ممكنة.
- إن شاء الله يا ابنتي، إذا وافق الجميع وخاصةً دكتور لؤي.
- والله يا عمي هذه الحكاية خففت كثيرًا من آلامي على أهلي رحمهم الله وأدخلهم فسيح جناته.

(٦)

دكتور لؤي حصل على مبالغ مجزية من ورث أبيه الكبير وأصبحت عنده أموال كثيرة خاصةً بعد أن أعطته أمه حجة البستان الكبير المسجل باسمه من قبل أبيه.

- يا أم لؤي أنت تعرفين أن ابنتنا الوحيدة تزوجت من رجل غني جدًا يملك الكثير ؛ الله يرزقه ويزيده، لهذا سجلتُ بستان البرتقال الكبير المحاذي للنهر باسم ولدي لؤي دون أن أفاتحه بالموضوع، وأنت تحتفظين بهذا الطابو، وبعد وفاتي تسلمينه إلى لؤي.
- أبو لؤي عمرك أطول من عمري، إن شاء الله صحة وعافية وعمر طويل.
- الأعمار بيد الله يا أم لؤي، لا تعرف نفسًا بأي أرض تموت، وهذا يذكرني بحكاية صغيرة حكاها لي أبي رحمه الله : عندما جاء ملك الموت إلى رجل حكيم قائلاً له أرسلني ربي لأقبض روحك اليوم ، فاعترض الرجل واحتج : لماذا لم تنذروني أو ترسلوا لي إخطارًا لأهيئ حالي، لقد فاجأتني أيها الملاك، أرجو أن تعطوني فرصة لأسدِّد ديوني للناس لكي لا يشتموني بعد وفاتي وأُنظِّم أمور عائلتي وأودعهم وأدفع ما بذمتي من زكاة وأحج بيت الله، وأمور أخرى تحتاج بعض

الوقت... اقتنع ملك الموت بكلام الرجل وعاد يسال الخالق عن أمر هذا المخلوق... ماذا دهاك يا عزرائيل اذهب لهذا الرجل الذي يدعي الحكمة وقُل له: أين أسنانك، ولماذا شعر رأسك أبيض ولماذا انحنى ظهرك وخارت قواك وأصبحت تبول على فخذيك و... عيب عليك أن تدعي الحكمة... اذهب إليه وأقضي أمره فقد انتهى عمره في هذه الدنيا الفانية وليذهب إلى آبائه الطيبين ليحيا حياة ثانية بدون أوجاع وشيخوخة وبدون موت ثاني في جنتي التي أعددتها للطيبين الأمناء الصادقين المؤمنين بخالقهم وبما أنزل عليهم من مكارم الأخلاق.

أم لؤي تستلم الطابو وتحتفظ به في مكان أمين، واليوم جاء الوقت المناسب لتسلّم الأمانة إلى ولدها لؤي حسب وصية أبيه.

• • • •

يقرر لؤي وناردين استثمار هذه الأموال في إنشاء بناية في المنصور في مكان بارز من شارع ١٤ رمضان المشهور، وهكذا كان... وبعد عام استلموا بناية جميلة من ثلاثة طوابق، الطابق الأرضي صيدلية ومختبر تحليلات مرضية ومركز للأشعة والسونر والمفراس، يُستفاد من إيجار الصيدلية في تسديد فواتير الماء والكهرباء والحارس، أما المختبر والمركز فتابعان للعيادة، أما الطابق الأول فيضم عيادتين جميلتين لكل

من لؤي ونارديـن، والطابق الثاني بيت جميل واسع لسكنهما، وجهزت البناية بمصعد كهربائي لخدمتهما وخدمة المرضى المراجعين.

الخير إذا هَلَّ يَهلُّ من كل الجوانب والله مثل ما يأخذ يعطي فهو أرحم الراحمين وهو الباسط موسع الرزق والعلم، والخير القادم أن ناردين حامل، ويا فرحة وسعادة لؤي بهذه البشرى الجميلة والذي قرَّر من الآن أن يسميه على اسم والده "جميل" إذا كان ولدًا، وعلى اسم أم ناردين "نورهان" إذا كان المولود بنتًا.

- اتفقنا ناردين

- نعم اتفقنا يا حبيبي

يمر على الحمل أربعة شهور ونارديـن تحت الرعاية الصحية لكونها تعمل في مستشفى الكرخ للولادة وطبيعي الطبيبات الاخصائيات زميلاتها يدارونها ويراعونها.

وأثناء الفحص الدوري وفحص السونار تخبرهما الطبيبة أنه ولد فيشعر لؤي بسعادة غامرة ويدور حول نفسه وكأنه عثر على كنز...

- ما بكَ يا حبيبي؟

- إنها رغبات مكبوتة يا ناردين، أمنية من أمنياتي ورغبة من رغباتي تحققت، فشكرًا لله.

يعودان للبيت وهما يرقصان جذلاً ، ويبشراننا أول الناس لأننا نفرح لفرحهما، ثم يتصل لؤي بأهله ليزف لهم البشرى السعيدة ويعلمهم: نحن وجارنا العزيز أبو سعد وعائلته قادمين صباح الجمعة بعد غد لزيارتكم ولنفرح مجتمعين.

- أهلاً وسهلاً بكم ابني وبكل الحبايب.

يوم جميل في الزهيرات بين أشجار الليمون والبرتقال والرمان وعرائش العنب وأشجار النخيل الباسقة المحملة بخيرات الله، المكان يطغي عليه اللون الأخضر لون الأرض والأشجار ، واللون الذهبي لون الحمضيات والرطب الزاهي الناضج.

ونحن جميعًا في غمرة السعادة والفرح نسمع صراخًا وعويلاً من البستان المجاور ويهرع الجميع لمعرفة السبب ، ويأتي الخبر المزعج أن دكتور مصطفى ابن جارهم وصديق العمر والذي ساهم بفعالية في قبول ناردين في دراسة الاختصاص قد سقط من النخلة أثناء تسلقها وربما أصيب بكسور ورضوض. يذهب دكتور لؤي لموقع الحادث فيجد دكتور مصطفى بأسوأ حال مغمى عليه، فيتصل بالإسعاف ويمنع تحريكه أو نقله من قِبل الآخرين، ويجري له إسعافات أولية، وعندما تصل سيارة الإسعاف يوجههم بطريقة حمله ونقله إلى المستشفى ويذهب معه ، وهناك تُجرى له الفحوصات والأشعات ، وبالصدفة طبيب العظام الأخصائي صلاح صديق مصطفى ولؤي يسكن في بعقوبة، يتصلون به هاتفيًا فيأتي على الفور، وبعد إطلاعه

على الإشاعات والتحاليل يخبرهم أن د. مصطفى قدر الله ولطف يعاني من كسر في الذراع الأيمن، وضرر محدود في الفقرة القطنية الخامسة، خلال أسبوعين أو ثلاثة سيتعافى، ويرى أنه لا ضرورة لنقله إلى بغداد لأن زميله دكتور صلاح سيعتني به وأنها مسألة وقت لا أكثر، فيقتنع الجميع بهذا الرأي.

عند المساء وبعد أن اطمأن الجميع على صحة دكتور مصطفى وبعد أن طمأن دكتور لؤي والد مصطفى على ولده ووعده أنه سيزوره باستمرار ليتابع تطور حالته الصحية مع تأكيه على اهتمام دكتور صلاح المركز به.

- ابني لؤي إنها الأقدار والحمد لله على كل حال، وشكرًا لجهودك يا ولدي وبارك الله فيك وممنونين منك.

- عمو كان المفروض أن يكون دكتور مصطفى أكثر حذرًا.

- يا ولدي القدر دائمًا يتغلب على الحذر، ثم نحن عوائل فلاحية أبًا عن جد ومصطفى من صغره تعلم صعود النخيل با لفرود ولكن الظاهر هذه المرة لم يربطه جيدًا، ومع هذا إنها الأقدار.

وبعد أن حملوهم أهلهم وبيت الحاج فليح أبو جاسم ما لدَّ وطاب عاد الجميع مكظومين تعبانين نفسيًا إلى بغداد.

• • • •

لؤي يقنع ناردين أن تكمل دراستها وتحصل على شهادة اختصاص في جراحة الأمراض الخبيثة طالما أنها حصلت على القبول بمساعدة دكتور مصطفى وهذه فرصة لا تعوض لكي تتكامل العيادة، فيشخِّص هو المرض بخبرته وبمساعدة تحاليل المختبر والأشعات والسونر وكذلك الأشعة المقطعية (المفراس) ، وهذا يعني أنها ستكون عيادة تخصصية نادرة ليس لها مثيل في بغداد.

لؤي وناردين في منتهى السعادة، يمتلكان عيادة طبية متطورة وشقة جميلة وواسعة في نفس بناية العيادة ، وكذلك مختبر تحليلات وعيادة للأشعة والسونر والمفراس وحتى الفحص بالرنين المغناطيسي، دكتور لؤي مشغول بمتابعة مرضاه عند المساء في العيادة، وناردين مراجعوها عددهم محدود لأنها لم تحصل بعد على الاختصاص، فتتابع سير العمل في المختبر وأجهزة التصوير المتقدمة وتبذل الجهود للتعلم وكتابة التقارير مع الأطباء المختصين الذين يعملون معهم في هذه المؤسسة الصغيرة التي سيأتي يومًا وتكبر.

تزداد سعادتهما ببدء ناردين الدوام في كلية الطب للحصول على الاختصاص، ولكنهما لا يعرفان ما يخبئه لهما القدر.

ناردين دائمًا تشعر بخوف مكبوت في داخلها وترى في المنام كوابيس مفزعة ، وأحلامًا تخيفها ، فتضطر للاستيقاظ من

منامها وتتحامل على نفسها وتذهب إلى التواليت لتحكي الحلم مع نفسها ليفسد الحلم، هكذا علَّمتها أمها منذ الصغر. فبالرغم من أنها أصبحت طبيبة ومثقفة وعلمانية لكنها ما زالت متمسكة بالعادات التي غرستها أمها فيها ورضعتها مع حليب أمها لأن التعلم في الصغر كالنقش على الحجر.

ناردين لا تذكر هذه الأحلام إلى زوجها لكونها أحلام مزعجة وهي لا تريد أن تعكر صفو سعادتها مع حبيبها لؤي.

ولهذا تجدها كثيرة السرحان عندما تختلي بنفسها تجتر ذكريات الماضي الأليم وماذا فعلت بها الأقدار وبأهلها الطيبين المسالمين، سبحان الله رغم كل هذا الخير، ورغم أن الله حباها فارس أحلامها الذي كانت تتمناه، ولكن مازال في داخلها جرح عميق لم يندمل، عندما تتذكر أخاها الشاب الوديع المؤدب الذي ساعدت والدتها كثيرًا في تربيتهِ، وتتذكر حنان أمها وطيبة أبيها ومحبة أخوالها، وأحيانًا تكلم نفسها أن كل شيء يهون إلا فقدان أخيها بهذه الطريقة الهمجية الطائفية البغيضة.

ناردين دائمة التفكير وتزعجها الوحدة ولهذا فهي منشغلة بين الدوام في الكلية والعيادة والدراسة وأعمال البيت بحيث تشعر أن الوقت لا يكفيها لأداء كل هذه المهام.

- يا خالقي أنا لا أشعر بالراحة النفسية إلا يوم الجمعة بمعنى في هذا اليوم فقط أستطيع أن التم على لؤي وأحدثه ويحدثني

رغم أننا معظم أيام الجُمع نذهب لزيارة أهله، تعب الطريق وتعب المجاملة رغم التقدير والاحترام وما نحمله من خيرات بساتين الزهيرات، وبحسبة بسيطة تجد أني أعيش مع حبيبي مرتاحة بحق وحقيق أربعة أيام في الشهر أي ثمانية وأربعين يوم في السنة، فَلَو فرضنا أن أعيش مثل أمي اثنين وخمسين سنة نطرح منها عمري ثمانية وعشرين سنة بمعنى أن حصتي من هذه الدنيا أربع وعشرون سنة نضربها في ثمانية وأربعين يوم الحاصل ألف واثنان وسبعين يوم أي خمسة وثلاثين شهر مع العطل الوطنية والأعياد والإجازات المرضية والاعتيادية لاتصل إلى أربعين شهر أي ثلاثة سنين وكم شهر لا غير ، طبعًا هناك من يقول هذه نظرة تشاؤمية للحياة ولكنها برأيي الحقيقة التي نعيشها محسوبة مع ساعات النوم طبعًا، والنوم هو الميت الحي كما يقول شاعرنا الكبير الجواهري عندما تخطَّى التسعين وسألوه فقال : أنا الآن الحي الميت.

ناردين في داخلها هاجس يقلقها ويقض مضجعها ويطير النوم من عينها، لا تستطيع التخلص من هذا الهم وكأنها تعاني من حالة نفسية تكبتها ولها رغبة جامحة أن تبوح بها إلى حبيب القلب لؤي ولكنها لا تحب أن تؤذي مزاجه ونشاطه وهمته العالية في بناء مستقبله.

يرن جرس الهاتف فتجفل ناردين، تنتبه أن المتصل زوجها...

- نعم لؤي.

- أنا أفكر بالذهاب بعد العيادة لزيارة صديقي دكتور مصطفى لأطمئن على صحته وهناك احتمال ان أبات عند أهلي وأعود صباحًا مباشرةً للدوام، ما رأيك ؟

- أنا أقول غدًا صباحًا تطلب إجازة وتخرج من المستشفى الساعة الحادية عشر وتذهب إلى الزهيرات لزيارة صديقك وتناول الغداء عند أهلك، وارجع في الساعة الرابعة للعيادة، أرى ذلك أفضل لأني أخاف عليك من السفر ليلاً.

- نِعمَ الرأي حبيبتي، وهو كذلك.

في اليوم التالي يزور صديقه مصطفى في المستشفى فيجد أن دكتور صلاح بجانبه وقد جبست يده وعلقت أثقال في ساقيه لغرض سحب الفقرة القطنية الخامسة المكبوسة، وأن صحته قد تحسنت، دكتور صلاح يطمئنه ويقول له اصبر قليلاً فإن الله مع الصابرين، كلها أسبوعان وكل شيء سيكون تمام التمام.

يتصل لؤي بناردين ويطمئنها على صحة صديقه وأنه في طريقه للعيادة وعندما يصل سيتصل بها ثانيةً لترتاح.

حملها نوعًا ما مريح وهي في الشهر التاسع وقد نصحتها طبيبتها الأخصائية بضرورة المشي يوميًا لفترة تزيد على

الساعة لتسهيل أمر ولادتها ، وأن كل شيء طبيعي عندها وربما خلال أيام تضع مولودها.

ناردين هيَّأت كل المستلزمات الضرورية للطفل ولؤي اشترى عربة للطفل من النوع الراقي وهي مطمئنة من قدوم جميل الصغير خلال يومين أو ثلاثة، ويجب أن يكون لؤي بجانبها.

ناردين وهي تنظف البيت بالمكنسة الكهربائية فجأة تشعر بآلام المخاض فتتصل فورًا بزوجها قائلةً: الحقني لؤي أني أعاني من آلام مبرحة.

يتصل لؤي بجارهم العزيز أبو سعد ،:

- أبو سعد العزيز أرجو أن تذهب فورًا مع أم سعد إلى ناردين للمساعدة وإذا اقتضى الأمر نقلها فورًا إلى مستشفى الراهبات فهي لديها حجز مسبق هناك ، وأنا في طريقي إليكم، سأصلكم خلال نصف ساعة، ولكن عليك أن تعلمني أن كُنتم مازلتم في البيت.

يتصل أبو سعد ويخبر لؤي إنهم في طريقهم إلى المستشفى فحالة ناردين حرجة وتحتاج كل دقيقة.

- طيب على بركة الله، شكرًا عمو أبو سعد.

- إنها ابنتي يا دكتور

تلد ناردين ولدًا جميل المحيا كامل الخلقة فيه شبه من أبيه وخاصة أنفه وفمه.

يقبِّلها لؤي على جبينها ويشكرها على هذه الهدية الرائعة.

- إنها هدية من الله جلَّ جلاله يا دكتور.

- نعم عمو أبو سعد صدقت.

تسلمهم الممرضة بيان الولادة قائلةً:

- هذا بيان "جميل" احتفظوا به لأنكم ستحتاجونه في إصدار هوية الأحوال المدنية.

بعد أربع ساعات من الولادة يعود الجميع للبيت.

(٧)

- حبيبي يجب أن تفكّر لنا الآن بشغالة تساعدني في أمور البيت وتربية جميل.

- طلبتِ حقك حبيبتي.

دكتور لؤي يكلف الحاج فليح أبو جاسم جارهم العزيز بإيجاد فتاة ملائمة تعيش معهما في بغداد وتخدم في بيتهما لتساعد دكتورة ناردين في أعمال البيت ورعاية طفلهما جميل.

- حاضر يا ولدي، سأحاول مع الفلاح الضرير أبو سلوى، فلديه ابنتان؛ سلوى الكبيرة وفدوى الصغيرة، عسى ولعله يوافق على واحدة منهما، عائلة شريفة عفيفة والرجل أحسن تربية بناته، ولكن ضيق الحال والحاجة ستدفعه للموافقة... دعني أجرِّب، وفِي قناعتي أنه سيوافق لأننا أنا ووالدك رحمة الله عليه كنا نساعد في تحمل أعباء الحياة منذ سنين.

- ولكن عمي أبو جاسم الله يخليك اصدقني القول: هل انقطعت هذه المساعدة بعد وفاة الوالد رحمه الله.

- لا يا ولدي، فوالدتك والشهادة لله كانت ترسل حقهم لي وأنا أسلمه لهم فيدعون لكم بالخير والستر والعافية.

يستطيع الحاج فليح إقناع أبو سلوى وبضمانته أن تبقى الكبيرة لرعايته والاهتمام به وتذهب الصغيرة إلى بيت دكتور لؤي.

- ولكن ليس بصفة خادمة وإنما بصفة ابنتهما ، إنها مسألة كرامة يا أبو جاسم.

- والله ما طلبت إلا حقك، ولكن قل لي ما هي طلباتك؟

- معقول أنا لي طلبات عندكم وأنا غرقان بأفضالكم يا أكرم الناس ، الرأي رأيك أبو جاسم والأمر أمرك ، وهذه ابنتي أمانة عندك أنت مسؤول عنها ، ولكني أحب أن أتحدث مع الدكتور لؤي وزوجته قبل أن تذهب فدوى معهما إلى بغداد.

- بكل ممنونية أبو سلوى.

أبو سلوى يكلم دكتور لؤي ونارديـن في بيتهما وهما يشربان الشاي:

- اسمع ابني لؤي، هذه فدوى أختكم تراعوها وتحافظوا عليها وهي أمانة في أعناقكم.

- عمو أبو فدوى اطمئن فنحن أهل وأبناء محلة واحدة ومن عشيرة واحدة وأنت عمنا وفدوى بنت عمنا أختنا العزيزة.

- على بركة الله.

يبادر د. لؤي بفتح محفظتهِ وإعطاء أبو سلوى مبلغ من المال ويضعه في يده.

- ما هذا !؟.

- عمو مبلغ بسيط يساعدكم على تحمل تكاليف الحياة.
- ابني لؤي ليست عندي بنات للبيع، قلت هذه فدوى أختكم، ثم خيركم مغطينا.

حاج فليح يقول لدكتور لؤي:

- رجع فلوسك، صحيح أبو سلوى ضرير ويحتاج للمساعدة ولكن عنده عزة نفس، اترك لي مثل هذه الأمور أنا أرتبها.

يأخذ دكتور لؤي على جنب ويوشوش في أذنه:

- دكتور سنزيد مقدار المساعدة الشهرية لهم وربما نضاعفها وأنت ستكون من المساهمين، وأنتم اعتنوا بفدوى وكأنها واحدة منكم وتأتي برفقتكم معززة مكرمة كلما جئتم لزيارة أهلكم.
- حاضر عمو أبو جاسم وبكل ممنونية، وألف شكر لكَ عمو أبو سلوى وسنكون أنا وزوجتي عند حسن ظنك بنا.

• • • •

فدوى فتاة فِي ربيعها السادس عشر، جميلة نبيهة مع مسحة حزن على وجهها، ملابسها بسيطة وفلاحية قديمة ونعلها مستهلك، غير متعلمة لأنها لم تدخل المدرسة، و معتمدة كليًا في تمشية أمور بيتهم على أختها الكبيرة سلوى، مازالت تجتر

ذكريات أمها التي توفاها الله قبل أربعة سنوات بسبب عجز الكليتين.

دكتور لؤي حال وصولهم إلى شقتهم في المنصور، ينزل إلى شارع ١٤ رمضان المكتظ بمحلات الملابس ويشتري لفدوى بدلتين وحذاءً جديدًا ونعالاً جميلاً (شبشب) مع دشداشتين للعمل في البيت، ويعود مسرعًا ويطلب من ناردين أن تشتري لها من المحل الذي بجانبهم ملابس داخلية، وتدخلها للحمام وتخصص لها منشفة (فوطة) وحاجات الاستحمام، وطالما أن الشقة فيها حمامان، فضروري أن يُخصَّص الحمام الصغير إلى فدوى، وتطلب منها بذوق عدم استخدام الحمام الكبير الملحق بغرفة نومهما.

تسير الأمور تمام التمام، وفدوى فعلاً تشعر أن لؤي وناردين أهلها وتحبهما ويحبانها، وتخصص ناردين جزءًا من وقتها لتعليم فدوى القراءة والكتابة لأنها تؤمن أن الإنسان حيوان يقرأ ويكتب، وفعلاً خلال فترة وجيزة تتعلم فدوى الكثير لنباهتها وذكائها المتميز، والكثيرون عندما تُهيأ لهم الظروف يبدعون وفدوى واحدة من هؤلاء.

فدوى نظيفة مرتبة، ازدادت جمالاً ونضارة، وخفت كثيرًا مسحة الحزن عنها. ناردين تعاملها وكأنها أختها الصغيرة وتعلّمها كل شيء مفيد، حتى أصبحت طباخة ماهرة وعندها

ذوق في ترتيب الحاجات ، وتهتم كثيرًا بنظافتها وهندامها ونظافة "جميل" وراعيته وإعطاءه الحليب في موعده حسب توصيات ناردين ، وخلال فترة وجيزة أصبحا يعتمدان عليها اعتمادًا كليًا في رعاية جميل وفِي تمشية أمور البيت ، وبعد أن اتقنت القراءة والكتابة والتعلم من خلال متابعة مسلسلات التلفزيون وجهود ناردين المكثفة في تعليمها.

أحيانًا يحتاج البيت إلى الخبز أو الخضار فتنزل فدوى للشارع لتشتري ما يحتاجه البيت من المحل المجاور.

هناك بسطة ملابس على الرصيف المقابل للعيادة يديره شاب في مقتبل العمر ، وضع عينه على فدوى ، يتابع نزولها وصعودها للشقة ، ويحاول إغراءها بشراء بعض الملابس الصينية الرخيصة الثمن... فدوى تقرر شراء بدلة ودشداشة لأختها سلوى ودشداشة لأبيها ، ولكنها لا تملك الثمن ، فيقنعها الشاب بالدفع بالتقسيط المريح وعلى أقل من مهلها.

تأخذ الملابس وتدفع شيئًا بسيطًا من مصروف البيت للشاب وتخبئ هذه الملابس في المخزن بعناية.

مع الوقت تتوطد علاقة فدوى بهذا الشاب ، وهما في طور المراهقة... من حسن الصُدف أن ناردين تراقب المارة من غرفتها المطلة على الشارع ، وشاهدت وقوف فدوى مع هذا الشاب وإعطاءه مبلغ من المال... استغربت من تصرف فدوى،

وعند عودتها كان معها كيس أسود صغير في داخله شيء ، فتعمدت أن تراقبها دون أن تلاحظها ، وشاهدتها تتسلل إلى المخزن وتخبئ الكيس وتخرج، ولكنها مرتبكة... فتنادي عليها وتسألها:

- أين كنتِ؟ وما علاقتكِ بهذا الشاب صاحب البسطة؟

تتلعثم فدوى في الإجابة:

- أنا لا أعرفه دكتورة.

- لا، أنتِ تعرفينه، وعيب أن تكذبي، وأين الكيس الأسود الذي كان بيدكِ؟ ولماذا خبأتهِ في المخزن؟... قولي الحقيقة وإلا أخبرتُ دكتور لؤي ليعيدكِ إلى أهلكِ.

فدوى تبكي وتقبل يَّد ناردين وتتوسل لها أن لا تقول للدكتور.

- خلاص قولي لي الحقيقة.

- نعم دكتورة أحببتُ أن اشتري بدلة وحذاء لأختي سلوى ودشداشة لأبي، وهذا البائع وافق أن يبيعني بالتقسيط، وقلتُ مع نفسي أسدِّد المبلغ على راحتي من فلوس المصروف التي تعطونني إياها ولا تحاسبونني عليها.

- هل هو من عرض عليكِ ذلك أم أنتِ ذهبتِ إليه ؟

- لم أذهب إليه ولكني كنت أتفرج على البضاعة ويبدو أنه يعرف أني أعيش معكم فاستغل ذلك.

- وما ذا بعد؟ أكملي...

- في إحدى المرات قال لي إنه جائع فعملت له ساندويتش ووضعته في كيس وربطته بخيط ورميته له من البلكونة... مرة واحدة والله يا دكتورة.

- وهل طلب منكِ المزيد؟

- نعم دكتورة، طلب مني أن أذهب إلى شقته لتناول الطعام عندما يكون أخوه الصغير أو أبوه موجودين معه في البسطة.

- وهل دخل بيتنا هذا الكلب؟

- لا... لا أبدًا والله لم أوافق على طلبهِ هذا.

- المهم اجلبي لي الحاجات التي أخذتِها من هذا الحيوان وأنا سأتصرف بحكمة وهدوء، ولكن يجب أن تعديني أن لا تكرري مثل هذه الأفعال المشينة التي تسيء لكِ ولنا، وأنتِ أمانة في أعناقنا.

تحتفظ ناردين بالملابس وتفكر بهدوء وكياسة وتنتظر عودة لؤي، فرأيان أحسن من رأي واحد.

يعود دكتور لؤي من المستشفى في الثانية ظهرًا ويستحم ويرتاح قليلاً ويتناول الغداء، وفِي الرابعة يصعد إلى العيادة، وبعد ساعة زمن تصعد ناردين لعيادتها وتؤكد على فدوى بعدم النزول من الشقة أبدًا، وأنها مضطرة أن تغلق باب الشقة عليها اليوم.

- دكتورة أتوسل إليكِ أن تسامحيني وألا تخبري أهلي.

- لقد تعودتُ أن لا أخبئ شيئًا عن لؤي ولكني سأطلب منه أن يعالج الأمر بحكمة وهدوء طالما وعدتِني أنكِ لن تكرري ذلك أبدًا.

- ثقي دكتورة، هذه أول وأخر مرة.

- المهم اعتني بجميل.

• • • •

على العشاء يجلسون جميعًا معًا، وهما يعاملان فدوى كأنها واحدة منهم تجلس حالها من حالهم على مائدة الطعام أو في الصالون وكأنها أختهما الصغيرة

ينتقلون إلى الصالة لمتابعة مسلسلاتهم المفضلة في التلفزيون...

- حبيبي لؤي هناك أمرٌ أريدك أن تساعدني في معالجته بحكمة وروية.

لؤي يركز الانتباه، ويضع الكتاب الذي بيده جانبًا.

- خيرًا ناردين؟

- هذا الشاب صاحب البسطة عاكس اليوم فدوى، لكن ليس كل الخطأ منه فكلاهما اشتركا بالخطأ، لأنها سمحت له أن يعاكسها لكونها اشترت منه ملابس لأهلها بالتقسيط حسب ما تقول وهذه الملابس في هذا الكيس، وقد دفعتْ له جزءًا من

ثمنها من فلوس مصرف البيت، لقد اعترفت لي على ما أظن بكل شيء ووعدتني أن لا تكرِّر ذلك أبدًا وأقسمتْ على ذلك.

- المهم هل اعترفت لكِ من ذاتها، أم أنكِ اكتشفتِ ذلك؟

- في الحقيقة أنا اكتشفت ذلك بالصدفة.

ينظر دكتور لؤي إلى فدوى شزرًا ويؤنبها، فتبكي وتقسم:

- أعترف أني أخطأتُ ولن أكرر ذلك أبدًا، وأتوسل إليك وحياة جميل أن لا تقول شيئًا لأهلي.

- لن أقول لأهلكِ شرط أن تكوني صادقة معي وتقولي لي كل شيء بينكِ وبين هذا الكلب ، وإذا أخفيتِ أي شيء عني ستندمين يا فدوى.

تجهش بالبكاء وتلطم خدودها، ودكتور لؤي يحاصرها بالأسئلة وبضرورة أن تقول له كل ما حصل بينها وبين هذا الشاب... تحاول أن تتهرب والدموع تفيض من عينها، وتلطم خدودها، يضغط عليها لمعرفة ما تخبئه، فتنهار وتعترف له بكل شيء.

- تعرفتُ على هذا الشاب واسمه حسين منذ ثلاثة شهور، وكان يعطيني بعض الهدايا من البسطة آخذها لأهلي عندما نذهب في الإجازة إلى الزهيرات ، كذلك أنا دائمًا أعطيه بعض الأكل من البيت، وسمحتُ له مرة واحدة بدخول البيت، ولكن عندما علمت من الدكتورة أن ساعتها اليدوية ضاعت ، اعتقدتُ أنه هو من سرقها، ولهذا لم أسمح له بعدها بدخول

البيت رغم كل محاولاته، وقد وعدني بالزواج وقال لي إنه يملك بيتًا في حي الإعلام سنتزوج به بعد أن نؤثثه بأحلى الأثاث، وأن هذه البسطة تكسب الشيء الكثير، والود وده أن يفرجني على بيته، وهو يعيش مع أمه التي تداريه وتعتني بالبيت ، وعندما نتزوج ترجع أمه إلى بيتها لتداري أباه وإخوته التي ترعاهم حاليًا أخته الكبيرة... وعند سفركما ومعكما جميل إلى البصرة لمدة يومين لحضور زواج ابن عم دكتور لؤي وتركتموني في البيت دون أن ترسلوني لأهلي، أقنعني أن نذهب لمشاهدة البيت والتعرف بأمهِ وتحديد موعد الزواج ليخطبوني من أهلي... صدقته ابن الكلب ودخلت معه للبيت لأشاهد البيت وأسلّم على أمه ولكني لم أجد أحدًا في البيت ، وأقنعني أن أمه ربما تكون عند الجيران أو ذهبت لشراء حاجة دقائق وتعود، طلب مني الجلوس وذهب للمطبخ وجاء بقدح فيه عصير برتقال وأنا كنت عطشانة فشربت العصير كله، ثم أحسستُ بثقل في رأسي وأن الصالة تدور بي ، بعدها لم أعلم ما حصل ، ولكني بعد فترة من الوقت جلستُ فوجدت نفسي عارية تمامًا وهناك قطرات من الدم على فخذي وعلى الفراش فسترتُ نفسي بالشرشف (الملاية) وأخذت أصرخ وأبكي، أعطاني ملابسي وأخذ يطمئنني بأننا خلال أسبوع سنتزوج وكأن شيء لم يحصل ، انها ساعة شيطانية والشيطان شاطر ، وأنه سيعوضني وسنعيش سعداء

لنا بيتنا وأولادنا... عدتُ للبيت مكسورة الخاطر ولا أعرف كيف أتصرف... وكل أسبوع يقول الأسبوع القادم ، وأنا أخاف أن أخبركم بأي شيء... استروا عليَّ الله يستر عليكم وأعيدوني لأبي وأختي سلوى.

- بهذه البساطة يا غبية ضيعتِ شرفك وأنتِ أمانة عندنا؟ ماذا نقول لأبيكِ وأختكِ، ماذا نقول للحاج فليح، ماذا نقول للناس؟ ماذا نقول لأنفسنا وقد اعتبرناكِ مثل ابنتنا وأمنَّاكِ على طفلنا. والله يا ناردين ما كان المفروض أن نقبل بها لأنها مراهقة وأُميّة ولا تفهم شيء عن بلاوي الدنيا ، ولم يسبق لها أن عاشت في المدينة ، ماذا نقول الآن لأهلها ، وكيف نبرِّر المصيبة التي نحن بها؟

- لؤي، لنفكر بهدوء وأرحم أعصابك، هذه العصبية لن تفيدنا، بل تعقّد الأمور علينا، دعنا نفكر على راحتنا.

- شوف هذه البطرانة تريد تفكر على راحتها، أي راحة أي سخام وجه... الله يستر من تاليها.

يغادر المنزل وهو يغلي وبحالة عصبية إلى الشارع، ويشاهد حسين في البسطة، فينادي عليه.

- ماذا فعلت بالبنت يا ابن الكلب؟

- والله دكتور ساعة شيطان ، وأنا مستعد للزواج منها ، وأنا رهن إشارتك خادمك المطيع، ومستعد أن أسترها.

أراد ان يضربه ولكنه تمالك نفسه..

- أين بيتكم ؟

- في مدينة الحلة.

- طيب اليوم خميس وغدًا الجمعة ، ولو أني كنت أخطط للذهاب إلى ديالى لزيارة أهلي والاطمئنان على صحة صديقي دكتور مصطفى ، ولكن شيء أهم من شيء... أعطني هويتك.

- والله يا دكتور ليس لدي هوية.

- طيب بطاقتك الشخصية، يعني دفتر نفوسك.

- في البيت والله.

- غدًا تأتي إلى هنا الساعة الثامنة صباحًا ونذهب أنا وأنت إلى الحلة لزيارة أهلك والتفاهم معهم لحل هذه الورطة التي ورطتنا بها، الله ينتقم منكَ يا سافل يا منحط.

- حاضر دكتور ، سأكون واقفًا هنا في تمام الساعة الثامنة صباحًا بالتأكيد، أنت تأمر.

يتصل دكتور لؤي بصديقه من أهل الحلة الذي يعمل معه في مدينة الطب وزميل دراسته في كلية الطب ويرجوه أن ينتظره غدًا وهو قادم إلى الحلة ، طالبًا منه المساعده في موضوع عائلي مهم.

- حاضر دكتور أنا بانتظارك يا اخي.

يلتقي دكتور لؤي بزميله في مدينة الحلة ويناقش معه موضوع الشاب حسين ماهود محسن من أهل الحلة بيتهم في محلة المعلمين، ويتعرف د. رؤوف على حسين ويسأله عدة أسئلة...

- دكتور لؤي لا تبتئس، إن مختار محلة المعلمين عمّ زوجتي، سنذهب إليه معا ونستفسر عن الشاب حسين وأهله.

المختار يجر حسرة بألم ومرارة:

- إنهم بيت ماهود، من أسوأ العوائل في مدينتنا، كلهم يتعاطون المخدرات ونصابين وحرامية وتجار نوع من المخدرات اسمه الكريستال الذي يدخل حاليًا إلى العراق من إيران بعد انفلات الأمن، وزيادة في المعلومات أمهم قوادة، وهؤلاء عائلة موبوءة ساقطة أخلاقيًا، لا أنصحكم أن تعطوهم امرأة مهما كانت الظروف والأسباب.

يعود لؤي إلى بغداد والأفكار تتزاحم في رأسهِ، ويترك حسين في الحلة لأنه لا يطيق رؤيته بعد الذي سمعه من المختار.

- خير إن شاء الله لؤي؟

- والله يا ناردين عُدتُ بخفي حنين كما يقول العرب، هذا حسين إنسان ساقط ومن عائلة لا تملك ذرة من الأخلاق، ناس تعبانين لا يتعاتبون، الأم قوادة، والأب يتعاطى ومروج للمخدرات القادمة من إيران، فلا أمل يرتجى من هذا حسين الكلب ابن الكلب.

- إذن ما الحل؟

- دعيني أفكّر الله يخليكِ.

يذهب إلى البقال صاحب محلات الإخاء الذي بجوارهم، ويسلم عليه، فيرد بتحية واحترام:

- أهلاً وسهلاً دكتور شرفتنا تفضل أأمر طلباتك.
- ما أمر عليك ظالم.. كنت أريد أن أستفسر منك عن هذا حسين صاحب البسطة؛ عن سلوكه، أخلاقه... مجرد استفسار.
- دكتور ، هذا من أهل مدينة الحلة كما علمت ومن عائلة ساقطة أخلاقيًا وهو يتعاطى ويبيع المخدرات من نوع الكريستال وهذه البسطة للغش والتمويه ، وأنا يوميًا أراقبه وأرى كيف يوزع المخدرات على الشباب المساكين.
- هل تعرف أين يخبئه؟
- نعم دكتور ، في الصناديق الفارغة بجانب البسطة ، وهناك كمية مخبأة تحت بنطلونات الكابوي ، دكتور الله يخليك خلصنا من هذا الساقط ابن الساقط ، أكيد عندك معارف وأصدقاء بالدولة، أرجوك لا تقصر وأنا معك، اطلب مني ما تريد وأنا برسم الخدمة.
- المهم أنت متأكد من كلامك ؟
- كل التأكيد دكتور ، وأنت تستطيع مراقبته من شباك العيادة ، بمعدل كل خمس دقائق يأتيه شاب ليبيع له الكريستال ، وهو أيضًا يتعاطى المخدرات لأنه باستمرار يعيش في عالم آخر.

بعد المراقبة يتأكد لؤي من صدق كلام جاره صاحب المحل فيتصل بصديقه عقيد الشرطة المختص في مكافحة المخدرات ويعطيه معلومات كاملة.

العقيد يأمر بمراقبة حسين وعند التأكد استصدار أمر من القاضي بالتفتيش وإلقاء القبض عليه...

وهكذا تم إلقاء القبض على حسين وبصحبته كمية لا يُستهان بها من المخدرات، ومصادرة موجودات البسطة.

- الآن يجب أن نعالج مشكلة فدوى، وأنا أقول يا ناردين من خلال علاقاتك بزميلاتك أكيد هناك عدد من الطبيبات يقمن بعمليات ترقيع البكارة بسرية وبشكل محدود، أرجوك اسألي عن واحدة شاطرة يعتمد عليها.
- حقيقي لؤي، لدي صديقة اسمها د. فوزية عيادتها في البياع، فمثلما أنت فكرت بهذا الموضوع، أنا كذلك وضعتُ في حساباتي هذا الأمر وفكرتُ مثلك للخروج من هذا المأزق الذي وضعتنا فيه فدوى الله لا يعطيها الخير، ولكني خشيتُ إن فاتحتك بالموضوع أن تقول لي هذه أعمال غش ونصب وضحك على الذقون.
- أرجوك ناردين لا تكملي، ولتنسقي مع د. فوزية وخلصينا من هذا القلق، الإنسان عندما تضعه الأقدار في مواقف صعبة عليه أن يعالجها بكل الوسائل الممكنة، مثلها مثل

مريض أُبتلي بالسرطان ، هناك الجراحة وهناك الكمياوي وهناك الأدوية، المهم لابد من إيجاد وسيلة للعلاج، وفدوى علاجها هذا ولا ينفع أن نزوجها من هذا الكلب ابن الكلب، أرجوكِ تصرفي ولكن بهدوء وسرية تامة.

(٨)

جميلة وحسن موظفان يعملان في عيادة د.لؤي بكل جدّ ومهارة جميلة مسؤولة عن تنظيم بطاقات المراجعين ومواعيدها والعناية بالعيادة وتنظيمها ونظافتها ، وحسن موظف صحي شاطر مساعد لدكتور لؤي في فحص المرضى ووسيلة اتصاله بالمختبر ومعمل الأشعة والسونار والمفراس، يعد بمثابة لولب العيادة وذراع مهم للدكتور لؤي ، ورجل مؤتمن من أهالي الزهيرات ومن نفس عشيرة دكتور لؤي... يسكن مع أمهِ في حي العامل ، وعنده بيت ملك وراتبه جيد ومجزي ، وقد تعلم الشيء الكثير خلال فترة عمله مع الدكتور ، حتى أصبح بارعًا في التصوير الشعاعي وفِي السونار ، ويعتمد دكتور لؤي على كفائتهِ كثيرًا.

يتصل الحاج فليح بالدكتور ويعلمه أن أبو سلوى الرجل المسكين الضرير قد توفاه الله ، وجدته أبنته سلوى ميتًا في فراشه.

لؤي يخبر حسن بالنبأ المزعج ويطلب من جميلة تأجيل مواعيد المرضى ، وهو وحسن وفدوى مضطرون للذهاب إلى الزهيرات.

حسن يعرف فدوى من خلال ترددها على العيادة مع دكتورة ناردين برفقة جميل الصغير ، لأن الدكتورة مراجعيها قليلون مقارنة بعيادة الدكتور المزدحمة بالمراجعين.

أُعجب حسن بفدوى وجمالها وتطورها وأناقتها، ولفت انتباهه معاملة لؤي وناردين لها وكأنها أختهما أو ابنتهما العزيزة... وتمنى لو يستطيع خطبتها لتكون زوجة صالحة له لأنه يعرف أصلها وفصلها ، ورغم فقر أهلها ولكنهم عائلة شريفة عفيفة تعتز بكرامتها وعزة نفسها.

يؤدي دكتور لؤي واجب العزاء ويدفع إلى الحاج فليح مبلغًا من المال مساهمةً في تكاليف مجلس العزاء ومراسيم مواراة الثرى كذلك يعطي فدوى وسلوى مبلغًا من المال لتمشية أمور الفاتحة وعمل ثواب للمعزين على روح المرحوم.

يترك الدكتور حسن وفدوى في الزهيرات ، ويستأذن عند الساعة الثامنة مساءً ويعود إلى بغداد.

تعتمد سلوى وفدوى كثيرًا على حسن في تمشية الأمور ، وتتوطد علاقة طيبة بين حسن وفدوى خلال أيام الفاتحة.

بعد أسبوع تعود المياه إلى مجاريها ، ويعود حسن وفدوى إلى بغداد، وتنتقل سلوى للعيش في بيت أهل الدكتور لؤي.

• • • •

يفاتح حسن دكتور لؤي برغبته الاقتران بفدوى... ينزل ماء بارد على قلب الدكتور ويرتاح نفسيًا، ويعتقد أن الأمور تسير في طريق الحل وتصحيح المسار، يردد مع نفسه : ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرجت وكنتُ أظنها لا تُفرجُ...

- اسمع يا حسن، أنا مبدئيًا موافق، ولكن الخطبة بعد شهر لحين انتهاء الأربعين على وفاة المرحوم والد سلوى.
- أشكرك يا دكتور، واسمح لي بأخذ موافقة دكتورة ناردين.
- على راحتكَ.

ناردين تسأل فدوى:

- ما رأيكِ بحسن الموظف الصحي في عيادة الدكتور؟
- إنسان طيب ومن عائلة معروفة عندنا في الزهيرات، ويقولون إن هناك صلة قرابة بين أمي وأمه.
- فدوى، إذا تقدم حسن لخطبتك فهل توافقين؟!
- إذا جميل الصغير حبيبي وافق، أنا أوافق.
- فدوى، أنا أتكلم بجد.
- دكتورة الله يخليكِ، والمصيبة التي أنا بها؟.
- هذه أنا أحلها، المهم الآن موافقتكِ.
- طبعًا أنا موافقة، والأمر أمركِ.
- بل القرار قرارك، صحيح الزواج قسمة ونصيب ولكنه بالاتفاق والإقناع، فإن كنتِ مقتنعة بحسن قولي.

- نعم ، نعم... موافقة ومقتنعة ، ولكن كيف ستقنعين حسن بمصيبتي وهو من عائلة فلاحية صعب عليه تقبل مثل هذه الأمور؟

الدكتورة تُعلم حسن بموافقة فدوى وموافقتهم ، ولم يبقى إلا موافقة سلوى ، وتطمئنه أن يترك الأمر لها ، فسلوى أيضًا ابنتهم واختهم.

بعد ثلاثة أيام ناردين تصطحب فدوى إلى عيادة الدكتورة فوزية حسب الموعد... وخلال ساعة زمن كل شيء يعود مثلما كان... تكتب الدكتورة لها معقمات وحبوب لمنع حدوث أي التهابات ، وبعد استراحة قصيرة في العيادة تعودان للبيت ، وتطلب ناردين من فدوى الراحة التامة والحركة بهدوء لمدة خمسة أيام والاهتمام بالتعقيم وتناول العلاج بانتظام.

بعد أسبوع تراجعان الطبيبة ، وبعد الكشف تخبرهما أن كل شيء تمام التمام، ولا توجد مشكلة من أي نوع.

• • • •

دكتور لؤي يمنح حسن إكرامية مجزية استعدادًا للزواج بعد نهاية الأربعين، ويبشر أختها سلوى بالموضوع ويتمنى لها أن تجد ابن الحلال مثل أختها ، ويرجوها أن تحل محل فدوى برعاية جميل الصغير عند زواج فدوى.

- دكتور أنتم أهلي وأنا ابنتكم وأختكم، وأنتم مسؤولين عني، فأنا ليس لي إلا الله وأنتم.

بعد الأربعين يومًا، وزيادةً في التأكيد؛ تعرض ناردين فدوى مرة أخرى على الدكتورة فوزية، فتؤكد لها أنها بنت بنوت مئة في المئة... وفِي ليلة الدخلة وليطمئن قلب ناردين تقوم بفحص فدوى وتطمئن من دقة عمل الدكتورة فوزية، وتقول لفدوى:

- لا تخافي، أنتِ الآن بكر، وانسي الموضوع تمامًا ولا تلمحي ولو تلميح، امسحي الموضوع من ذاكرتك... مفهوم؟

- نعم مفهوم دكتورة.

يتزوج حسن وفدوى في الزهيرات، ويفرح الجميع... ينتقلان إلى حي العامل ليعيشا في بيت حسن مع أمه، بعد أن قام بإعادة تأثيث البيت وشراء كل ما تحتاجه فدوى تحت إشراف ناردين.

وتنتقل سلوى من بيت أهل لؤي إلى بيت لؤي، وتعتني بها ناردين عناية فائقة، وتشتري لها كل ما تحتاجه من ملابس ولوازم وتعلمها الأصول وبعض الإتيكيت، وكيفية العناية بالصغير جميل... وتلاحظ الدكتورة أن سلوى أكثر اتزانًا ورزانةً من فدوى وأكبر عقلاً وأسرع تعليمًا.

يرتاح لؤي وناردين من كابوس فدوى ودون تأنيب ضمير لأن فدوى ضحية غدر هذا الجبان حسين وليس بإرادتها ورغبتها.

• • • •

في أعياد الميلاد يقرر الجميع أن تكون السهرة في بيت أبو سعد في السيدية، وتذكّره ناردين بوعده أن يقصَّ عليها حكاية "رأس المال" فأكَّد عليها أن يقضوا الليلة عندهم، على أن يقصَّ عليها الحكاية في الغد.

يقضون سهرة ممتعة وجميلة، وعند الساعة الثانية عشر يتبادلون التهنئة ويقبلون بعضهم بعضًا، وهم سعداء بجميل الصغير.

- ناردين، الوقت مناسب لطفلٍ آخر، وإن شاء الله ولد أخ لجميل.
- عمو بالحقيقة أنا أحب أن تكون بنتًا واسميها على اسم أمي كما وعدني لؤي.
- خير وبركة ابنتي كما تحبين... والآن أرى الوقت ملائمًا لأقصَّ عليكم حكاية رأس المال التي وعدتكِ بها بعد العشاء.
- والله يا عمو لا تعرف كم أنا مشتاقة لسماعها، كل كلامك حِكم ومواعظ، الله يخليك لنا.
- عليكم أن تصغوا جيدًا للقصة، ومن يحب مشاهدة التلفزيون فليذهب إلى الصالون الثاني.
- كلنا آذان صاغية.

سماري فلاح محمداوي يزرع الشلب في أراضي الشيخ خليفة أبو مجيد ، طول الموسم يكد ويكدح مع زوجته وأولاده وبناته الأربع الصغار.... يجيء نيسان موسم الحصاد ، فيحصد هو وزوجته گاشية المحصول بالمنجل بشق الأنفس ويدوسونه ويذرونه ثم يجمعونه بيدرًا يسرُّ الناظر.... حصة الشيخ ٧٥٪ - حصة الصركال ١٠٪ - الري ١٠٪ - حصة الوزان ٢٪ - حصة السيد ٢٪... نظر سماري إلى البيدر الذي سُرِق أمام عينيه وعيون عياله، ونزلت دموع حارَّة على خديه كوتهما... وگاشية شبكت يديها على رأسها تندب حظهم وظلم القوي للضعيف... سرح بعيدًا ماذا يُعطي للحداد الذي وشرَ مناجله وماذا يعطي للبقال ثمن السكر والشاي وماذا وماذا... داخ وأذهلته الصدمة ، لم يبقى من البيدر العالي سوى تراب الشلب... فمسك مسحاتهُ (أي معوله) وراح يهوس بحركة گلب. (بقلبٍ يعصرهُ الألم)... ماچنك زارع يسماري... ماچنك زارع يسماري... ماچنك زارع يسماري... بمعنى (كأنكَ لم تزرع شيئًا يا سماري)... ووقع مغشيًا عليه.

قرَّر سماري الهجرة إلى سلف (ريف) بعيد... يركب الزورق مع عياله وما خفَّ حملهُ ويتجه لأعماق الهور باتجاه قرية سبق أن زارها ، وعندما اقترب من القرية عن طريق نهر سريع الجريان يسموه خوره يتجنبها البلامة لوجود سويرات مائية عميقة سحبت بلم سماري وأغرقتهم...

سماري المسكين يكافح لينجو من الموت بما يملك من قوة ونشاط وقد تجمع أهل القرية وشيخهم على الساحل لا يستطيعون المساعدة لقوة السويرات المائية وعمق الخوره... ينجو سماري لوحده في أخر نفس... يبكي ويولول لأنه فقد كل شيء وأصبح لا معنى لحياته، ويريد أن يرمي نفسهُ في الخوره حُبًا لزوجتهِ وأولاده ، ولكن رجال القرية وشيخهم الجليل يمسكون به بقوة... يقول له شيخ العشيرة الحكيم: اسمع يا ولدي لا تخف، مازال رأس المال موجود.

يعود سماري إلى قريته، وبعد حين يتزوج وينجب... وبعد سبع سنين يقرر زيارة القرية أم الخورة، ويدخل مع زوجته وعياله مضيف الشيخ الحكيم ويسلم عليه...

- شيخ تتذكرني أنا سماري ، قبل سبع سنوات غرق عيالي وزوجتي في هذه الخوره، وكنتُ أنا الناجي الوحيد.
- نعم أذكركَ يا ولدي، من معك؟
- هذه زوجتي وهؤلاء أولادي.
- أتذكرُ عندما قلتُ لكَ لا تخف يا ولدي رأس المال موجود.

ترتاح ناردين للحكاية:

- عمو أشكرك على هذه الحكايات الجميلة الممتعة، وأرجوك بكل مناسبة اتحفنا بحكاية جديدة الله يخليك.

(٩)

تمرُّ الأيام والشهور، وبعد أربعة سنين تحس ناردين أنها حامل بسبب انقطاع العادة الشهرية ونوع من الغثيان، فترسل للمختبر كمية من الإدرار، فيخبرونها أنها حامل في الشهر الثاني.

تبشِّر لؤي الذي يكاد يطير من الفرح.

- الود ودي يا لؤي أن يرزقني الله ببنت أسميها على اسم أمي "نورهان" كما اتفقنا سابقًا.

- وأنا موافق وعند وعدي.

تكمل ناردين شهادة الاختصاص، ومع الوقت يزداد عدد المراجعين للعيادة، فتنشغل بين الدوام الرسمي والعيادة والبيت رغم أن سلوى شاطرة تهتم بنظافة البيت والعناية بجميل وتعلمت الطبخ على أصولهِ، وأصبحت ناردين تعتمد على كفائتها وأمانتها وعنايتها بجميل وبالبيت.

تفكر ناردين ماذا لو تقدم أحدهم للزواج من سلوى؟ ماذا سأفعل يا إلهي؟ وترد على نفسها: وقتها يحلها الحلال، سأرسل جميل إلى بيت أهل لؤي لتعتني به جدته وعمته لحين ما نجد لنا شغالة جديدة.

تزورهم فدوى بين الحين والحين مع زوجها حسن وتساعد أختها في أعمال البيت، وهي سعيدة ومرتاحة مع زوجها.

تمر الأيام على ناردين وفِي الشهر الرابع من الحمل تتأكد بواسطة السونار أنها حامل ببنت.. لقد حقق الله مرادها وأمنيتها ونورهان في الطريق إن شاء الله... تبشر لؤي وتقبل جميل وترجوه أن يذهبوا للزيارة لتعطي النذور التي وعدت بها.

- هذا الأسبوع زخم العمل، وأحس أني مجهد وأحتاج للراحة يوم الجمعة، ولكن مع هذا لأجل خاطرك سآخذكم لزيارة الكاظم لقُربه، وفِي أقرب فرصة نذهب إلى كربلاء والنجف وسأنسق الأمر مع العم أبو سعد، فهو موسوعة في مثل هذه الأمور.

الإنسان مهما تطور ومهما تعلم يبقى ما غُرس فيه من أهله في الطفولة حيًّا يعيش معه ويرتاح إليه ويلجأ إليه عند الشدة والمواقف الصعبة، فالإنسان كائن ضعيف تؤذيه بقة وتنتنهُ عرقة وتقتلهُ شهقة، لهذا في المواقف يعود إلى ما تعلمه حتى من جدته، ويؤمن بالكثير من الأمور حتى ولو لم يتقبلها عقله.

صباح الجمعة بعد الإفطار يذهب الجميع إلى مرقد الإمام الكاظم (كاظم الغيظ)، وناردين تردد مع نفسها بخشوع : {الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} آل عمران - ١٣٤

- عمو أبو سعد، أرجوك فكرة سريعة عن الإمام الكاظم.

- وُلِد الإمام موسى بن جعفر الكاظم في قرية تُسمى (الأبواء) وكانت ولادته يوم الأحد السابع من شهر صفر من سنة ١٢٨ وقيل سنة ١٢٩ هجرية، في أيام حكم مروان بن محمد... وتشير بعض المصادر إلى أن الإمام الصادق كان يوليه عناية ومحبة خاصة، حتى أنه حينما سُئل عن مدى حبه لولده الكاظم أجاب: وددتُ أن ليس لي ولدٌ غيره لئلا يشاركه في حبي أحد... كان عمر الإمام موسى بن جعفر ٥٥ عامًا، قضى منها ٢٠ عامًا في حياة والده جعفر الصادق و٣٥ بعد وفاته. وقد عاش تلك الفترة في زمن أبيه وارتاد مدرسته العلمية الكبرى التي أنشأها في الكوفة/ العراق، والتي خرَّجت الآلاف من العلماء والفلاسفة والفقهاء والمحدثين، حتى قال الحسن الوشّاء عند مروره بمسجد الكوفة: أدركتُ في هذا المسجد ٩٠٠ شيخ كلهم يقول: حدثني جعفر بن محمد... وكانت الفترة التي عاشها في أواخر حياة والده الصادق وبعد وفاته هي فترة علمية حساسة جدًا في تاريخ المسلمين حيث سيطرت فيها الفلسفة اليونانية على الفكر العام، وكثرت فيها الاتجاهات الفكرية وتنوّعت، وامتد ذلك إلى صلب العقيدة والدين، فمن حركات تدعو إلى الإلحاد ومن حركات فلسفية تشكك في بعض العقائد الدينية، فكان على الكاظم أن يتحمل مسؤوليته من الناحية العلمية.

- اسمعيني ناردين ضروري تكون لديكِ فكرة ولو بسيطة عن ضريح الإمام الكاظم، لقد بُنيت هذه الحضرة فوق قبر الإمام وقبر حفيده محمد الجواد في بغداد، ويقابل المرقد من الضفة الأخرى من نهر دجلة مرقد الإمام أبو حنيفة النعمان، ويربط بينهما جسر الائمة.

للمسجد قبتان متساويتا الأبعاد وأربع مآذن كبيرة، ويبلغ ارتفاع السقف ٢٥م تعلوه القبتان المزينتان بالزخارف الإسلامية والآيات القرآنية من الداخل، ومن الخارج غُلفت القبتان بتسعة آلاف طابوقة من الذهب الخالص وحولها المآذن الأربع المغلفة بالذهب أيضًا ، والتي ترتفع إلى ٣٥م فوق السقف ، وحول القُبب أيضًا أربع منارات صغيرة بارتفاع ٤,٥م.

خلال القرن الماضي بُني سياج حديدي مشبك خارج الحضرة ويحيط بها فيه بوابتان حديديتان، وذلك لتنظيم حركة الزوار. بعد الاحتلال الأمريكي للعراق أصبحت البوابتان الحديديتان تُستخدمان للسيطرة وإجراء عمليات التفتيش على النساء والرجال ، فُرضت هذه الإجراءات نظرًا للظروف الأمنية السيئة في العراق.

أما الصحن فيتكون من أربعة أقسام: صحن قريش هو القسم الغربي منه، صحن باب القبلة في القسم الجنوبي، صحن باب

المراد في القسم الشرقي، وجامع الجوادين في القسم الشمالي. للصحن عشرة أبواب لها تسميات محلية للدلالة عليها، منها ثلاث رئيسية كبيرة للدخول وهي باب المراد، باب القبلة، وباب صاحب الزمان، أما السبعة الأخرى فهي صغيرة الحجم تشمل باب قاضي الحاجات، باب الفرهادية، باب الجواهرية، باب قريش، باب الرجاء، باب المغفرة، وباب الرحمة.

للصحن ثلاث أروقة حول سقوفها مزينة بالآيات الكريمة وتتدلى منها الثريات، تستخدم الأروقة للصلاة حين تضيق قاعة الصلاة في الداخل عن استيعاب المصلين.

ويحيط بالصحن جدار سميك وضخم بارتفاع ١٠م مزين من الخارج بالطابوق الفرشي المنقوش بالآيات القرآنية وبعض النقوش الإسلامية، وخلف الجدار طابقين من الغرف والأواوين مجموعها ٦٢ غرفة منها ١٤ في الطابق العلوي وتستخدم لتدريس طلبة العلم، معظمهم من المذهب الشيعي، الغرف في الطابق السفلي بعضها للتدريس أيضًا وبعضها دُفِن فيها بعض كبار العلماء ورجال الدين. والغرف مبلطة بالرخام وجدرانها مزينة بالطابوق الكاشاني. على هذا الجدار بين باب القبلة وباب المراد ساعة يبلغ ارتفاعها ٢٠م ذات زخارف إسلامية ونُقِش عليها أيضا آيات قرآنية نصبت عام ١٣٠١هـ عند بناء أخر توسعة للحضرة، وما زال الجدار والغرف والساعة كما كانت عام ١٣٠١هـ عدا عمليات الصيانة العادية.

أما الروضة الشريفة فتنقسم إلى قسمين، جنوبية وبها قبر الإمام موسى الكاظم، وشمالية وبها قبر الإمام محمد الجواد، ويصل بينهما ممران ضيقان. ويقع الضريحان وسط القسمين وفوق كل منهما قبة، وقد قطع جانب من كل ضريح بحاجز حديدي ليفصل بين الرجال والنساء أثناء الزيارة. وقد وضع على القبرين صندوقان من الخشب مغلفان بالزجاج السميك حماية لهما من الغبار، ومنقوش عليهما نقوش إسلامية جميلة. ويحيط بالقبر شُبَّاك فضي مطعَّم بالمينا تعلوه سورتا الدهر والفجر نقشت على المينا الأزرق، وكتبت بالذهب الخالص. جدران الروضة وأرضيتها من الرخام وعلى الجدران نقشت آيات قرآنية ونقوش زجاجية إسلامية تصل إلى باطن القبتين. تتدلى من السقف عدد من الثريات النفيسة وعلى الجدران ساعات جدارية كبيرة.

هذه نبذه موجزة عن هذا الصرح العظيم الذي يتبارك به الملايين من المسلمين من كل أنحاء العالم وزواره لا عد لهم ولا حصر وليل ونهار على مدار ساعات اليوم سيل عرمرم من الناس لا ينقطع.

أكمل لؤي ونارديـن زيارتهما برفقة ولدهما جميل وسلوى بإعطاء النذور والتضرع إلى الله ان يسعدهم ويبعد عنهم شرور الدنيا ومشكلاتها وأن يحفظ ولدهم جميل ويسهل قدوم أخته نورهان، كذلك سلوى طلبت من الكاظم أن تنال مرادها ويكرمها الله بالزوج الصالح كما أكرم أختها فدوى... ثم يعودون لبيتهم والفرح يغمر قلوبهم ونفوسهم.

(١٠)

في نهاية الشهر السابع من الحمل تشعر ناردين بتعب وإجهاد وقلة شهية للطعام وتتعرق باستمرار ويغدو وجهها شاحب اللون، فاعتقدت أنه بسبب الحمل وقُرب ولادتها.

يلاحظ لؤي التعب والإعياء الظاهرين على ناردين، ونحولها وقلة وزنها، فيسألها إن كان هناك ألم في الناحية اليمنى أعلى البطن، فتجيبه بنعم ولكنه خفيف.

يقترب منها ويفحص عينيها فيلاحظ إصفرارهما.

- خير لؤي؟

- اطمئني، احتمال أن يكون نوعًا من اليرقان الخفيف (أبو صفار) ومن السهل علاجه، ولكن ضروري في صباح الغد أن نجري تحاليل بالمختبر ونعمل سونار للكبد لنتأكد من سلامة البنكرياس ودقة عمله.

نتائج التحاليل لم تكن جيدة وغير مطمئنة، مما أقلق لؤي، فاصطحبها للسونار للفحص، واندهش من ضخامة الكبد وتليفه: الله وأكبر، إنها حالة متقدمه جدًا من السرطان، أين كنّا ولماذا لم نجري الفحوصات هذه بوقت مبكّر، ولماذا انشغلنا بالعمل وأهملنا أنفسنا؟!

تلاحظ ناردين إصفرار وجه لؤي وتلعثمه وهو يحكي مع نفسه.

- خير لؤي؟ خوفتني.

- إن شاء الله خير، حالة بسيطة.

- لؤي أنا دكتورة وضروري أن أفهم مما أعاني، هل هذا مرض خطير؟

- ناردين، يجب أن نسافر هذا الأسبوع إلى لندن، الوقت ليس بصالحنا والحالة لا تحتمل التأخير.

- بربك قول لي الحقيقة، الله يخليك.

- لستُ متأكدًا لأقول لكِ، ولكن هناك مشكلة بالكبد ويجب أن نسافر لأن الطب هناك أكثر تقدمًا من هنا، ورأي أكثر من طبيب أفضل من رأيي.

- هناك أمر خطير تخفيه عني، هل ابنتنا نورهان أصابها شيء؟

- قلتُ لكِ البنت سليمة، ولكن المشكلة في كبدكِ أنتِ، وإن شاء الله خير، حضري نفسك للسفر... وأنتِ يا سلوى أفضِّل أن تأتي أختكِ فدوى لتعيش معكِ وبرعاية زوجها حسن، وكلها كم يوم ونعود.

• • • •

في لندن وبعد التحاليل والأشعات والمفراس (الأشعة المقطعية) يتأكد للأطباء أنها حالة سرطان متقدمة، والكبد بالكامل فيه تليف، و لا يتحمل أي نوع من الإشعاع الكمياوي، أما الجنين فيمكن إجراء عملية قيصرية لإخراجه.

مضى على الحمل ثمانية شهور وأربع وعشرين يومًا، ولهذا الأطباء يحبذون إجراء العملية القيصرية عندما يكتمل عمر الطفلة تسعة شهور بالتمام والكمال حفاظًا على سلامة الطفلة، وكلها ست أيام وتكمل مدة تسع شهور... يوافق لؤي ونارين على رأي لأطباء.

تجرى عملية الولادة القيصرية بسلام، وتولد نورهان كاملة الخلقة تشبه إلى حد بعيد أمها الجميلة، ترتاح ناردين وتسعد بنورهان، ولكن لؤي في نفسه غصة وفِي قلبهِ حزن دفين.

يناقش زملاءه وأساتذته الأطباء، فيخبرونه أن ناردين لم يبقَ لها في الحياة غير ستة شهور، وربما مع العلاج ممكن تكسب عدة أشهر أخرى، وأنهم ملزمون بإخبارها لأنها طبيبة وستقدر الأمور، ولأن القوانين الطبية لديهم تلزمهم أن يكون المريض على بينة من مرضهِ، وعلى الطبيب المعالج أن يكون واضحًا وصريحًا وصادقًا مع مرضاه.

يقول لؤي لكبير الأطباء:

- أنا لا أجرؤ على إخبارها.

- دع الأمر لي ، وسأرى الوقت الملائم وبكل هدوء أفاتحها بحالتها المعقدة.

يربت بيده على كتف لؤي ويقول له: هذه هي الدنيا يا دكتور.

يزور كبير الأطباء ناردين وبكل هدوء ومودة يحكي لها شيئًا في البداية عن تليف الكبد الكامل وتضخم الكبد بسبب السرطان وأن الإصابة لو كانت في جزء من الكبد لأمكنهم استئصال هذا الجزء الخبيث...

- الكبد كما تعرفين يا دكتورة ينمو ، والقسم الباقي مع الأدوية يعوض ، ولكن المشكلة أن كبدك متضرر ومتليف بالكامل ومازالت دراسات زراعة الكبد في بدايتها، ولهذا نحن نعتذر منكِ، وهذه قدرتنا وقدرة الطب حاليًا، أنا آسف جدًا.

- دكتور دقيقة...

تكلمه والدموع تنهمر من عينيها وبصوت متهدج وبعبارات مخنوقة:

- كم بقى لي من العمر أرجوك ؟

- في تقديرنا كأطباء: ستة شهور قابلة للزيادة قليلاً مع العلاج المركز.

- وابنتي نورهان، هل هي سليمة؟

- نعم دكتورة سليمة مائة في المائة، من هذه الناحية اطمئني.

- يغادر كبير الأطباء الغرفة، ولؤي لايجرؤ على الدخول ومواجهة عيون حبيبته ناردين، يرفع جميل ويشمه ويقبله ويبكي على كتفه الصغير، والطفل مندهش من أبيه...
- أمك مريضة يا جميل، ونحاول علاجها إن شاء الله، ولكن المسألة معقدة والمرض مستفحل، ومع هذا الله كريم.

يتمالك لؤي نفسه ويدخل مع جميل ويحتضن ناردين ويبكي بحرقة، وهي تسمع نشيجه وتحس بألمه، وتخاف عليه وعلى جميل.

- أمي كانت دائمًا تقول: الله يقطع من هنا ويوصل من هنا، الله أخذ مني أمي وأبي وأخي وأخوالي ولكن عوضني بكَ وبجميل ونورهان، ما العمل يا لؤي هذه إرادة الله، ولا راد لإرادته... والآن بربكَ قل لي ما العمل يا لؤي؟
- كبير الأطباء شرح لكِ كل شيء تقريبًا، ليس أمامنا سوى العلاج بهذه الحقن وهذه الحبوب وننتظر رحمة الله الواسعة فهو الشافي {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} هذه الآية كانت أمي تردِّدها دائمًا عندما تمرض، فتتماثل للشفاء... ليس أمامنا إلا أن نضع عيوننا بعيون الله سبحانه وتعالى فهو الشافي وهو مبرأ العلل الجسام في طبهِ، فليس من المروءة أن يتهدم بيتنا السعيد على رؤوسنا.

- لؤي أنا استمد عزيمتي من عزيمتك، فأرجوك لا تضعف ولاتهن ، أريدك قويًا متماسكًا كما عهدتكَ ، تحافظ على أولادنا أحبابنا وعلى بيتنا وعلى عيادتكَ، وقد عوضتكَ عني ببنت جميلة تشبهنا تذكرني يا لؤي بها باستمرار وحافظ على حبنا، وأرجوك دع عيادتي مفتوحة للمرضى واستعن بطبيبة أخصائية تحافظ على سمعة العيادة واسمي، أرجوك لا ترفع اللافتة المكتوب فيها اسمي من على البلكونة ولا عن باب العيادة ، واحتفظ بصوري معلقة في الصالة وغرفة النوم وغرف أولادي وكأني أعيش معكم، وخاصة أنت يجب أن تتذكرني دائمًا وضروري تضع صورتي في عيادتك ، أنا أريد أن أعيش معكم ، لا أريد فراقكم... أرجوك أن تلتزم بوصيتي هذه وتذكّر أولادي دائمًا بأمهم التي تحبهم ، ولا تغيرك الأيام يا لؤي.
- والله يا ناردين روحي فداكِ، ولي أمل في شفائكِ، وأسأل الله أن يستجيب لدعائي وتضرعاتي إنه السميع المجيب.

ناردين متماسكة أكثر من لؤي ، وتردِّد مع نفسها دعوات تعلمتها من أمها.

- لا تخف يا لؤي إن الله معنا، أنا لم أقترف في حياتي شيئًا يغضب الله، فليس من المعقول أن يعاقبني الله كل هذا العقاب وأنا إنسانة مؤمنة تخاف الله وطبيبة ناجحة تعالج الناس بكل

مهنية وإنسانية، وليس من المعقول أن تفنى عائلتي بالكامل وهي لم تجني أي ذنب لأن هذا ظلم والله عادل رؤوف بعباده... سمعت من أمي رحمها الله أنه لا يجوز زيارة سيدنا الحسين دون زيارة أخيه سيدنا العباس، فلماذا لم نزر العباس عندما زرنا الحسين ولا يفصل بينهما إلا شارع جميل وقصير.

- حبيبتي كان الازدحام على أشده وهذا الشارع القصير كما تقولين كان مكتظًا بآلاف مؤلفة من البشر نحتاج أكثر من ساعة لنقطعه ولم يكن لدينا الوقت الكافي، ولكن ممكن أن نعوض الزيارة بزيارة أخرى نحاول أن نزور مرقد الامام العباس وبعدها نذهب إلى النجف لزيارة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وكذلك نزور مقبرة السلام في النجف لنقرأ سورة الفاتحة على أهلك وعلى أبي، رحمهم الله جميعًا، ولكن علينا ان نقنع بيت أبو سعد بالذهاب معنا ونهيئ أنفسنا من الصباح ليكفينا الوقت.

- ناردين حبيبتي.

- يا عيون ناردين.

- ألا تلاحظين أن أبو سعد رغم أنه من الصابئة المندائيين لكن لديه معلومات كثيرة عن أئمة المسلمين وعن الدين الإسلامي أكثر منا، والأكثر من ذلك يؤمنون مثلنا بالزيارة للأئمة ويعتقدون بشفاعتها.

- هؤلاء ناس طيبون يحبون كل الناس وكل الأديان وكأنَّا أهلهم وأقربائهم، ضروري تحكي لعمو أبو سعد عن حالتي فهو يفهم في كل الأمور، أحتاج أن يرشدني إلى مخرج يخرجني من هذه البلوة.

جميل أصبح بعمرٍ يفهم بما يدور حوله، ولكن الصورة غير واضحة لديه، ولهذا يسأل أمه ببراءة الأطفال:

- ماما، أنتِ مريضة؟

- لا تخف يا جميل إنها وعكة صحية وسيساعدنا الله على تجاوزها، حبيبي ادعو الله أن يشفيني فالله يستجيب لدعاء الأطفال لبرائتهم وصدق دعائهم وطهارة نفوسهم وقلوبهم.

- ماما ماذا أقول؟

- قل أي كلام يرضي الله ولو بالإشارة.

- ماما هل صحيح ستتركيننا وتذهبين إلى دنيا أخرى تعيشين هناك مع أهلك؟ وما ذنبنا نحن أنا ونورهان؟ ماما الله يخليكِ نحن نحبكِ وبحاجة إليكِ، أرجوكِ لا تتركينا، استحلفك بخالي أنور أن لا تتركينا.

تنزل دمعات ساخنة على خده الطري تقابلها ناردين بنشيج يقطع نياط القلب، وتضم ولدها بقوة إلى صدرها وتقبل رأسه قبلات متتالية وتنزل دموعها فتبلل شعر جميل.

ناردين بحاجة إلى قوة معنوية هائلة لمقاومة المرض والتغلب عليه إن أمكن، كذلك يقتصر طعامها على الخضروات حصرًا وترك اللحوم الحمراء خاصةً، كلها دراسات واستنتاجات، لكن المريض يأمل بشفائه بالدعاء والرجاء وبالطب الشعبي لكونه إذا لم يفيد فهو لا يضر كما هو الحال في الأدوية الكمياوية التي غالبًا لها آثار جانبية... لهذا فهي بحاجة إلى عمو أبو سعد لأنها تحبه وترتاح إليه وتعتبره الأب الروحي لها.

يزورها مساء الخميس أبو سعد وأم سعد ويتجاذبون أطراف الحديث الممتع، وتشعر ناردين براحة نفسية عالية.

- عمو أبو سعد، سبق أن حدثتني في عجالة عن الحياة ما بعد الموت، وأذكر إنَّكَ قلت لي إن الإنسان الذي يُؤْمِن بوجود حياتين، يعيش هذه الحياة وله أمل في الحياة الثانية، وهذا شيء حسن يرفع المعنويات، وقد يقتنع الإنسان بوجود الحبل السري الذي يربطه بالعالم الثاني أي بالعالم الملائكي في جنة الله سبحانه وتعالى حيث هناك الحياة بدون أمراض وأوجاع وبدون موت ثاني، حياة نظيفة طاهرة كل وسائل الحياة الجميلة الممتعة متوفرة فيها، لكنه بدون عمل وبدون جهد يبذله الإنسان هناك، يعني زرع الله في أرض الله.
- المشكلة العقل، الله وهب الإنسان عقلاً يفكّر به ويقتنع بالأشياء من خلاله، وكل هذه الأمور روحانية لا تُرى ولا

تلمس، كلها أمور ميتافيزيقية أي ما وراء الطبيعة، عكس الماديات التي ترى وتلمس.

- ليتني كنت مثل أمي بثقافتها البسيطة وإيمانها العميق بالروحانيات، مشكلتي أني أستخدم عقلي كثيرًا وأحب أن يقتنع عقلي بما يدور حولي، ولهذا فأنا مجبرة بسبب محنتي هذه أن أُقنع نفسي بأمور روحانية عقلي لا يتقبل معظمها وغير مقتنع بها... عمو الله يخليك أريد شرحًا تفصيليًا عن الحياة ما بعد الموت تقنعني به وتقنع لؤي وجميل، لأرتاح ولأضع عيوني بعيون الله، ولتكون هناك قناعة عند جميل ولؤي أني أعيش هناك مرتاحة وسيأتي اليوم الذي سوف نلتقي فيه إن شاء الله.

- حاضر ابنتي، ولكني أفهم كثيرًا في شرح هذا وفق مفهوم الدين الصابئي المندائي، وسنطلب من عمو الحاج فليح أبو جاسم عند زيارتنا الزهيرات أن يفسِّر لنا مفهوم الحياة الثانية وفق مفهوم الدين الإسلامي.

- عمو أليس الدين كله مُنزل من الله؟

- نعم ابنتي هذا صحيح.

- إذن المفروض تعتمد كلها على نفس المبدأ ونفس التفسير.

- ناردين ابنتي، سبق أن شرحت لكِ حسب فهمي للأمور، هناك دين وهناك تدين كما يقول بعض الفقهاء المحدثون في

التفاسير ، فالدين يعتمد أساسًا على مرتكزين أساسيين هما الإيمان بالله بالمطلق واحد أحد لا شريك له في ملكهِ ، والإيمان بمكارم الأخلاق التي أنزلها الله في وصاياه على أنبيائه المرسلين... أما التدين فهو مجمل الشعائر والطقوس والتشريعات التي أوجدها الإنسان خلال الزمن، فرجال الدين أوجدوها كوسيلة ومع الوقت حولوها لغاية وبعد زمن أعطوها قدسية وأضافوها للدين فعقدوه وضخموه وأثقلوه ، وهذا سبب كافي لعزوف معظم الشباب عن الدين وظهور مدارس العرفان والحداثة وعدد من المحدثين الذين يَرون أن هناك طرفي معادلة طرفها الأيمن النصوص الثابتة وطرفها الأيسر تطور الحياة ، فإما نوقف تطور الحياة وهذا يعني الموت أو نطور تفسير النصوص بما يواكب تطور الحياة وهذا ممكن... فمثلاً أنا عمري تجاوز السبعين عام ولا أصلي ولا فرض واحد بسبب صعوبة الصلاة عندنا ، الوضوء والصلاة يحتاجان إلى وقت ، فلو مثلاً قصروا الصلاة على عدد من الكلمات والإشارات كما فعل السيد المسيح لكان أفضل حسب رأيي وقناعتي ، لأن الدين يُسر وليس عُسر ولكن هذا الكلام لا يقبله عدد من الناس وخاصةً رجال الدين المتزمتين... يا ابنتي هذا كلام كبير وخطير وواسع لا أحب أن أدوخكِ به ، المهم عندي صحتكِ وتماثلكِ للشفاء ، والله أرحم الراحمين.

- عمو بالحقيقة أشعر بهزال شديد وبحرارة ناعمة تجتاح كياني وبتعرق شديد وعدم شهية للطعام، ومع هذا عندي إيمان قوي بالحياة لأجل أطفالي ولأجل لؤي، وأنا أسألك لأوسِّع دائرة معلوماتي لأن جميل أحيانًا يسألني أسئلة محيرة لا أملك جوابًا لها، ولهذا أستعين بكَ عمو لتفهمنا بعض المعلومات الأساسية ولأسمع منكَ بعض القصص الممتعة التي ترفع من معنوياتي.

- والله يا ابنتي كلامك هذا يذكّرني بحكاية حكاها لي أبي رحمه الله أيام زمان... أن ولدًا ذكيًا سأل أباه الحكيم سؤالاً محيرًا: قل لي يا أبتي كيف أرى الله؟ وما شكله؟ وما هو القضاء والقدر؟ أرجوك أن توضح لي ذلك، فأنا في حيرة من أمري. احتار الحكيم كيف يرد على ولده... وبعد برهة من الزمن بادر ولده بلطمه قوية على وجهه جفل منها الولد وصرخ متألمًا من شدة الضربة... وبعد أن هدأ الولد سأله أبوه: هل تشعر بالألم يا بُني؟ نعم يا أبي... ولكنك لا تراه... صحيح يا أبي... هل تستطيع أن تصف لي شكله ؟ كلا يا أبي... ابني هذا يقرِّبك كثيرًا من معرفة الله، فأنت يا ولدي تحسه وتشعر به في عقلك وإحساسك ومواجد قلبك لكنك لا تراه ولا تعرف شكله لأن الله جل جلاله حالة روحانية عظيمة لا تراه ولا تلمسه... ثم عاد الولد يسأل أباه الحكيم: طيب يا أبتي وماذا يعني القضاء والقدر ؟... ابني هل كنت تعلم أني سوف

أضربك؟ كلا يا أبي، لقد فاجأتني... إذن هذا هو القضاء والقدر، يأتيك من حيث لا تتوقعه... صدقتَ يا أبتي ولكني لن أسألك أسئلة محيرة أبدًا لكي لا تفاجئني بضربة مؤلمة مثل هذه.

- يعني عمو لازم انضرب حتى أتعلم؟

- لا ابنتي ناردين، ما عاش الذي يضربك، ولكنها أمثال تُضرب ولا تُقاس، ولكي أوضِّح الأمور ليس إلا.

- صح لسانك عمو أبو سعد، كلك عِبر ومواعظ وحِكم. وأرجوك أن تقنع لؤي أن نذهب معًا لزيارة الإمام العباس وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وزيارة أهلي في النجف أشعر أني بحاجة ماسة لهذه الزيارة، أرجوك أن تساعدني في هذا.

- تدللي ابنتي يمكنكِ الاعتماد عليَّ، غالي والطلب رخيص، طلباتكِ سهلة ومفيدة، ولكني أرى أننا عندما زرنا الإمام الكاظم في الكرخ كان الأحرى بنا أن نزور الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان على الجانب الآخر من نهر دجلة في الرصافة، يجب أن نزرع هذه الثقافة في نفوسنا وفِي نفوس أولادنا وأحفادنا لنقضي تمامًا على الطائفية البغيضة، فكلنا عباد الله وهؤلاء أولياء الله.

- صدقت عمو ، والله هذه ثقافتي التي كنت أتمنى أن أنقلها لأولادي ، ولمعلوماتك هذه ثقافة لؤي ، إن شاء الله سنحقق هذا الرجاء ونزور الإمام الأعظم في الأعظمية ، والإمامين العسكريين علي الهادي والحسن العسكري في سامراء.
- إن شاء الله، وهذه مراقد قريبة ويسهل زيارتها.

في هذه الأثناء يأتي لؤي للبيت، يفرح عند رؤيته أبو سعد يرفّه عن ناردين ويخفّف عنها آلامها ويرفع من معنوياتها.

- ناردين هل تتناولين العشاء معنا؟
- لا والله أحس أني متعبة ولا شهية عندي للطعام ، أرجوك اطلب من سلوى أن تحضر لكم العشاء.
- أبو سعد ما رأيك نذهب إلى الصالون لنتناول العشاء ونشرب الشاي ونتحدث قليلاً.
- أنا أرى يا دكتور أن المرض قد اشتد على ناردين، لقد ذبلت الوردة النظرة الفواحة واصفر لونها وخارت قواها ، ولون الجلد كما تعلم يا دكتور وأنت أفهم مني في هذا المجال يدل على صحتها ونظارتها ، ولون الجلد هو الذي يفرق بيننا ، فهذا أسود وهذا أبيض وهذا أصفر ، وهذا شاب وهذا شيخ ، وهذا رجل وهذه امرأة ، وهذا مريض وهذا بصحة جيدة ، وليس هناك شيء يدل على صحتك مثل بشرتكَ أي جلدكَ ، فكلما كانت بشرتك نظرة ناعمة لينه فأنت في صحة وعافية،

وهذا الجلد يلم لحمنا وشحمنا وعدد ٢٠٦ من العظام وعدد ٦٤٩ عضلة، وأنت تولد في جسمك وعندما تموت تتركه خلفك، لأنك تموت في جلدك، وتتفحص الدنيا بعينيك وأذنك وأنفك وفمك، تتحسس الأشياء بأصابعك، ولهذا فان الفرق بين الحيوان والإنسان أن للإنسان عقل يفكر وأصابع تدبر قادرة على صناعة الأشياء مهما تعقدت، فالإنسان كما تعلم يصنع أدوات حياته وأدوات موته... دكتور، أنا آسف خضتُ في موضوع هو من اختصاصك، المفروض أن أتعلّم منكَ مثل هذه الأمور.

- عمو أبو سعد هذه ثقافة عامة، وأنا سعيد أن اسمع منك ذلك فأنتَ موسوعة ثقافية في مختلف جوانب الحياة، ولكي نكمل هذا الموضوع الشيق، يجب أن تعرف أن اهتمام الإنسان بالألوان منذ قديم الزمان وإلى يومنا هذا، وإلا ما معنى أن تضع النساء الألوان على وجوههن وشفاههن ويتفاخرن بلبس الملابس الملونة ذات الخطوط الملونة الجذابة... وكثير من الناس يعتقدون أن الألوان عبارة عن تصريح بمرور الخير والشر إلى أجسامنا مثلها مثل إشارات المرور: أحمر خطر يجب الوقوف، وأخضر يمكن السير والمرور، وأصفر للتهيؤ والحذر، وهكذا. وهناك من يعتبر اللون الأبيض رمزًا للسلام والمحبة والخير لأنه يشبه لون اللبن والحيوانات المنوية ويدل على الصحة والعافية، واللون الأحمر لون الدم

يدل على الحياة والقوة، أما اللون الأسود فدلالة على الشر والموت والليل والمرض، واللون الأخضر يدل على الحياة الحيوانية والنباتية والشباب، أما اللون الأصفر فدلالة على لون الذهب المعدن الغالي النفيس، وكان الفراعنة يستخدمون الذهب بإسراف في طلي توابيت موتاهم وقبورهم، ولكن العلماء اكتشفوا مؤخرًا أنهم لم يستخدموا الذهب الخالص ولو استخدموه لكانت مصر الآن تملك آلاف الأطنان من الذهب ولكن الحقيقة كانوا يخلطون بذور الحلبة مع قشور البصل ويغلونها إلى أن يحصلوا على عجينة ذهبية مرنة يطلون فيها حاجاتهم.

- الله يا دكتور هذه مناقشة مفيدة، الله يجزيك كل خير ويفرح قلبك وقلوبنا بشفاء ابنتنا ناردين.

- يا رب، يا ما أنت كريم يا رب العالمين.

- المهم نتفق على تلبية رغبة ناردين بزيارة الإمام العباس في كربلاء وأمير المؤمنين علي في النجف هذا الأسبوع، وفي الأسبوع القادم نزور الإمام الأعظم في الكاظمية والإمامين العسكريين في سامراء في نفس اليوم. وفي كلا الحالتين يجب أن تناموا عندنا يوم الخميس لننطلق يوم الجمعة صباحًا ولا نضيع الوقت... اتفقنا دكتور

- نعم عمو اتفقنا، وعلى بركة الله.

(١١)

مساء الخميس يلتقي الجميع في بيت أبو سعد، وأم سعد مشغولة مع ابنتها في إعداد العشاء، تذهب ناردين برفقة سلوى لزيارة بيت أهلها المجاور فتجده على حاله وأم سعد وابنتها مهتمتان بنظافة وترتيب البيت، فتعود شاكرةً أم سعد على العناية ببيت أهلها وتطلب من سلوى مساعدة أم سعد في إعداد مائدة العشاء.

يتناولون العشاء ويجلسون في الصالة يتجاذبون أطراف الحديث.

- عمو أبو سعد، أرجوك أن تعطيني فكرة عن الإمام العباس.

- حاضر يا ابنتي وبكل ممنونية... عندما سنصل إلى مشارف مدينة كربلاء المقدسة حتى تكتحل عيناكِ بشموخ المآذن والقباب الذهبية للمرقدين الطاهرين مرقد سيد الشهداء وأبي الأحرار الحسين بن علي (عليهما السلام) وأخيه وحامل لوائه أبي الفضل العباس، ونتذكر معاني البطولة والإيثار والثبات على المبادئ الحقيقية التي جاء بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، بعد أن تجسدت بأعلى معانيها في طف كربلاء وفي أعظم ملحمة عرفها التاريخ.. عند ذلك تغرورق عيناكِ بالدموع لهول الفاجعة وعِظم المصاب... يتجه الزائر أول ما يتجه إلى مرقد قمر بني هاشم وفخر عدنان أبى

الفضل العباس باعتباره وزير أخيه الحسين، ليؤدي مراسم الزيارة حيث أُستشهد في العاشر من المحرم سنة ٦١ هجرية على مقربة من مشرعة الفرات ودفن حيث موضع شهادته، ليشيد بذلك صرحًا شامخًا من صروح الحق في دنيا الإسلام صانعًا بذلك مجدًا عظيمًا نال فيه المقام العالي والمنزلة الرفيعة عند الله عّز وجل... قال الإمام السجاد في رواية عن زائدة أنه قال (قد أخذ الله ميثاق أناس من هذه الأمة لا تعرفهم فراعنة الأرض هم معروفون في أهل السماوات أنهم يجمعون هذه الأجساد المتفرقة وهذه الجسوم المضرجة فيوارونها وينصبون لهذا الطف علمًا لقبر سيد الشهداء لا يندرس أثره ولا يعرفوا رسمة على مرور الليالي والأيام). وقال ابن طاووس في كتابه "الإقبال" : (انهم أقاموا رسمًا لقبر سيدٍ بتلك البطحاء يكون علمًا لأهل الحق)... ويذكر المؤرخون أن من أهم أسباب بقاء أبي الفضل العباس في مكان استشهاده وعدم حمله إلى موضع سيد الشهداء الحسين هو سر كشفته الأيام وهو إرادة الله عز وجل أن يكون لهذا المولى العظيم مشهدًا يُقصَد بالحوائج وبقعةً يزْدلفُ إليها الناس ويذكر فيها الله سبحانه تحت قبته التي تناطح السحاب رفعةً وسناءً حيث تظهر الكرامات الباهرة ولتعرف الأمة مكانتها السامية ومنزلتها الرفيعة، وحامل لوائه أبي الفضل العباس.

- ابنتي ناردين هذه باختصار شديد معلومات سريعة وبسيطة عن هذا المقام العظيم الذي يزوره آلاف مؤلفة من الناس كل يوم من كل بقاع العالم، وهناك إيمان عند هؤلاء الناس أن أبو الفضل العباس يقضي حوائجهم، أذكر في أثناء الحرب العراقية الإيرانية وعندما يكون الإنسان في شدة يستنجد ليتشفع بالعباس ليقضي له حاجته. لهذا سُمِّي بقاضي الحوائج.
- الله ياعمو أنت إنسكلوبيديا، أنا أفتخر بكَ وبهذه المعلومات الرائعة، لا أعرف نحن بدونك يتوجب علينا قراءة عشرات الكتب لمعرفة ما تعلمناه في وقت قليل.

تنبهر ناردين بالقِباب الذهبية العملاقة وبالشارع الجميل الذي يربط الحضرة الحسينية بالحضرة العباسية، وتقول: تمنيتُ أن تكون شوارع العاصمة بغداد بهذا الجمال وهذه النظافة.

يزورون ويتشفعون وينذرون ، وتصلي ناردين ركعتين لله ليشفيها ويعفيها من هذا المرض اللعين ، ثم تمسك شباك الضريح وتهزه بكل ما تملك من قوة ، وتدعو الله أن يحفظ أولادها وزوجها ويشملها برحمته الواسعة، وترجو من العباس أبو الفضل أن يتشفع لها عند خالقها الله جل جلاله.

بعدها يذهبون إلى مطعم قريب ليرتاحوا ويشربوا الشاي ويجهزوا أكل الأطفال ، لأنهم قرروا أن يكون غداؤهم في النجف الأشرف بعد زيارة الإمام علي بن أبي طالب.

- عمو أبو سعد أرجوك أعطِنا فكرة بسيطة وسريعة عن ضريح أمير المؤمنين.
- هذه المهمة مهمة د. لؤي.
- والله عمو أبو سعد أنا لا أملك المعلومات التي تملكها ، فأرجوك لاتحرجني مع ناردين، ولكني أعدك بأن أهتم بهذه الأمور المهمة وسأقرأعنها لأوسِّع دائرة معلوماتي.
- ياالله هذه المرة سماح يا دكتور ، ولكن في المرات القادمة المسؤولية تقع عليك ، ويجب عند عودتنا أن تحضِّر لنا معلومات مفيدة عن الإمامين العسكريين في سامراء.
- حاضر عمو أبو سعد.
- طيب اسمعوني لأننا يجب أن نكسب الوقت فخلال شربنا للشاي وإعداد الطعام للأطفال سأحكي لكم : يعتبر الضريح المقدس رائعة من روائع الفن الإسلامي ، فبالإضافة إلى قيمته الروحية العالية، فإنه يضم الكثير من بدائع فن صناعة الذهب والفضة والترصيع بالمينا المتعددة الألوان... يبلغ ارتفاع الضريح المقدس من الأرض وحتى قمة التاج الذهبي حوالي ٤م ويبلغ طوله ٣٥,٦م وعرضه ١٠,٥م ، ويمكن

تقسيمه إلى جزئين رئيسيين : الأول هو الشباك الفضي ، والثاني هو التاج الذهبي الذي يعلوه... أمَّا الشباك الفضي فهو عبارة عن ١٣ نافذة تشبه الإيوان مغلفة بنسيج من الكُرات الفضية المنضودة مع بعضها بقضبان قصيرة بحيث يمكن للزائر أن يرى المرقد الشريف من خلف هذه النوافذ، وأعلى كل واحدة منها مطوّق بقوس فضي منقوش بزخارف نباتية بارزة كثيرة، وفي وسط كل جانب من القوس كُتِب (يا علي). ويتضمن الضريح من الجهة الشرقية والغربية أربعة نوافذ ، ومن الجهة الشمالية خمسة نوافذ ، أمَّا من الجهة الجنوبية فهناك أربعة نوافذ والخامسة جُعلِت بابًا للدخول إلى داخل الضريح المقدس ، وتفصل بين كل هذه النوافذ أعمدة مزخرفة بطريقة رائعة، وهي مصنوعة من الفضة الخالصة أيضًا، أما عند أركان الشباك الفضي فتوجد أربعة أعمدة في كل رُكن مزخرفة بنقوش نباتية وعناقيد العنب البارزة بالإضافة إلى الآية : { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ }. وفوق الشباك الفضي توجد كتيبة تطوق الشباك معظمها من المينا المطعمة بالفضة ، مكتوب عليها أبيات من قصيدة ابن أبي الحديد العينية... أمَّا التاج الذهبي الذي يلي الشباك الفضي مباشرة فهو يتكون أولاً من كتيبة ذهبية كُتِب عليها آيات من القرآن الكريم بحروف بارزة وخط متداخل ، تعلوها كتيبة مرتفعة من الذهب ذات هيئة شبه مقعرة تحوي نقوشًا نباتية بارزة ،

ثم تليها كتيبة ذهبية مستوية نقش عليها أحاديث نبوية شريفة في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فوقها تقوم ١٠٤ وردة ذهبية نُقِش على كل واحدة منها اسم من أسماء الله الحسنى موزعة على الأضلاع الأربعة، وعند أركان التاج الذهبي تقوم أربع رمانات من الذهب الخالص... وبعد ذلك ترتفع كتيبة ذهبية ضخمة محدبة تحوي نقوشًا نباتية على هيئة عناقيد وأواني ذهبية، تعلوها كتيبة مقعرة على شكل أوراق نباتية مقعرة، تليها كتيبة نقش عليها سورة الرحمن منصوب فوقها ٩٦ قنديلاً ذهبيًا وُزِّعت على الأضلاع الأربعة للتاج الذهبي... وأنا أرى يا ناردين أن تشاهدي كل ذلك أكثر بكثير بعينيكِ عندما نصل وندخل الضريح... ابنتي هذا ضريح فريد من نوعه في العالم الإسلامي يأمه الملايين للتبارك وإعطاء النذور وطلب شفاعة أمير المؤمنين كل عام.

يصلون الضريح في الساعة الواحدة ظهرًا، وناردين منبهرة بهذا المقام العظيم وبقبته ومناراته المذهبة العالية التي تطاول أعنان السماء بغاربِ، ويجدون صعوبة في إيجاد مرآب لسياراتهم من شدة الازدحام ولكن الله يفرجها عليهم بمساعدة شرطي المرور لكونهم عوائل تستحق المساعدة.

يزورون المقام ، وتصلي ناردين ركعتين وتتشفع وترجو الصحة والعافية لأولادها وزوجها ولها، وتقول بصوت أجش وعيون باكية:

- يا أمير المؤمنين ، أتوسل إليكَ أن تتشفع لي عند الله رب العالمين أن يعفيني من هذا المرض اللعين فأنا لا أستحق كُلَّ هذا العذاب... يا رب يا خالقي، أنا إنسانة مؤمنة صادقة أمينة عفيفة شريفة أعطي الثواب وأدفع الصدقة وأساعد المرضى والمحتاجين ، حتى هذه سلوى وقبلها فدوى أعاملهما مثل أخواتي، وأنت شهيد لانكَ تعلم مافي القلوب، أخذتَ مني أبي وأمي وأخي وأخوالي خلال أشهر معدودة وصبرتُ وصابرتُ على البلوى لإيماني بكَ يا رب الخلق ، وقد عوضتني خيرًا بزوجي لؤي وبأولادي جميل ونورهان، فأنا العبد المطيع المؤمن ، أتضرع إليكَ أن تعافيني وتدعني أعيش لأربِّي أولادي يا رحمن يا رحيم.

أبو سعد ينبه الجميع إلى ضرورة الاستفادة من الوقت لزيارة مقبرة السلام...

- الساعة الآن أصبحت الثانية بعد الظهر ، لنرتاح في أحد المطاعم الفاخرة ونتناول الغداء ونتوكل لزيارة المقبرة فهي قريبة جدًا ، وضروري نعود قبل غروب الشمس لأن طريق العودة أكيد مزدحم.

يختارون مطعم النجف القريب من الحضرة ويطلبون الدجاج المشوي وطرشي النجف المشهور مع خبز التنور الحار ويشربون الشاي... وهنا تطلب ناردين من أبو سعد أن يعطيها فكرة عن مقبرة السلام.

- طيب وبعدين معاكِ يا ناردين.

- عموالله يخليك كمل فضلك عليَّ.

هنا تتدخل أم سعد وتقول:

- يا أبا سعد قابل الكلام بفلوس، إذا تعرف نورنا الله ينور عليك.

- حسب معلوماتي أن أول قبر في المقبرة هو قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعندي معلومات محدودة عن هذه المقبرة التي تعتبر أكبر مقبرة في العالم لأن معظم المدن العراقية والإيرانية وغيرها من الدول الإسلامية تدفن موتاها هنا قرب ضريح الإمام تشفعًا بمقامه الرفيع عند الله. وإليكم بعض المعلومات الموجزة عن هذه المقبرة الواسعة التي تضم رفات ملايين الناس من المسلمين: مقبرة وادي السلام هي أحد مقابر المسلمين والتي تقع في مدينة النجف في العراق، وتعد أكبر مقابر العالم حيث تحتوي حسب بعض التقديرات على ما يقارب ستة ملايين قبر، وأُدرجت ضمن قائمة التراث العالمي، وقد حظيت المقبرة بشهرة واسعة بسبب تميز أرض النجف وأرض وادي السلام بالإرتفاع عما

جاورها وبتربتها الرملية إلى عمق مترين وربما أقل بقليل في بعض الأماكن تظهر صخور صلدة ممتدة بشكل جيد ، إضافة إلى الجفاف وعدم التعرض إلى الفيضان الذي كان يحدث لجهات الكوفة وكل بابل. والأهم هنا الدفن بمجاورة الإمام علي والفوز بالإطمئنان والشفاعة... الاعتقاد بأن الدفن في مقبرة وادي السلام إلى مجاورة الإمام يخفّف من محاسبة منكر ونكير ، وهذا الكلام جاء من الأخبار المتواترة عن الأئمة... وجاء في الروايات حول مقبرة وادي السلام بأنها محشر لكل المؤمنين. وتتعدد الروايات حول فضل تربة النجف ومزية الدفن فيها... هذه أبرز الدوافع التي دفعت الناس منذ دفن الإمام إلى الرغبة في نقل موتاهم ودفنهم إلى جوار قبره... وهناك الكثير من الروايات والأحاديث التي روت يمكنكم الإطلاع عليها من المؤلفات الكثيرة والكبيرة أو من العم جوجل الذي يعرف كل شيء.

- الآن الساعة الثالثة، لنتوكل على الله ونذهب لزيارة المقبرة.

- عمو هل تعرف أنت ولؤي مكان قبور أهلنا ؟.

- طبعًا يا ابنتي الغالية ، فلقد ذهبت هناك عدة مرات ، مرة عندما أخذنا أبوكِ رحمة الله عليه، وثانيةً مع أخيكِ وأخوالك، وثالثةً مع أمكِ، ورابعةً مع الحاج أبو لؤي رحمة الله عليهم جميعًا، وطول العمر لكِ يا ابنتي وصحة وعافية.

يقتربون من مراقد أهلهم، تتحامل ناردين على نفسها وتُسرع إلى قبر أخيها أنور وتقرأ الفاتحة وتصلي عليه ودموعها تفيض بالدموع، ولؤي يربت على كتفها ويقول: صحتكَ يا ناردين، فتتمالك نفسها وتنتقل لزيارة أبيها وأمها وأخوالها وتعاتب أمها: لماذا تركتِني للعذاب يا أمي وحيدة؟ حبيبتي أمي لدي إحساس أني سأكون عندكِ قريبًا فتهيئي لاستقبالي.

تلومها أم سعد، وتحضنها وتبكي معها:

- لا يا ناردين، لا يسمعك الأولاد، وانظري إلى لؤي كيف تأثر من كلامكِ وبكى، لقد جئنا بكِ إلى هنا لنرفه عنكِ لا لنؤذيكِ، لا تنسي أنكِ مريضة.

- أم سعد هذه هي الدنيا.

- أجل يا ابنتي هذه هي الحياة، وكما يقول الإمام علي: كما أضحكتكَ الحياة تبكيكَ.

أم سعد تفهم الشعر ولكنهالا تحفظه.

- عمو الله يخليك، أنت حافظ هذا الشعر؟

- نعم ابنتي وسأحكيهِ لكِ كما تحبين عند عودتنا وعندما نرتاح قليلاً في كازينو جميلة على الطريق نشرب الشاي ، والجوعان يأكل التكة والكباب المتميز.

- عمو هذا وعد ؟

- وعيون ناردين وعد.

- والله يا عمو حيرة، معقول يُولد الناس لكي يموتون، انظر على مَدْ البصر القبور هَذِهِ الملايين يشكلون شعبًا كاملاً.

- ابنتي هَذِهِ هي الحياة يا ناردين، نحن في كتابنا المقدس يقول (كل من يُولد يموت وكل ما يُصنع بالأيدي يفسد فأين سرّ الألوهية إن كُنتُم تعلمون، إن عكازتكم يوم الحساب أعمالكم التي عليها تتوكأون، فانظروا إلى ماذا تستندون)... وفي القران الكريم: { كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ }. وفي آية أخرى: { كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ }... على الإنسان أن يكون دائمًا متفائلاً ويحب الحياة ويبذل كل جهد ليحيا فيها سعيد رُغمًا عنها، بمعنى أن يخلق السعادة في بيته له ولعياله وأحبابه، لأن الحياة يا ناردين فيها الحلو وفيها المُر، فيها النور وفيها الظلام، فيها الرحمن وفيها الشيطان... كما كنتِ دائمًا ترددين مقولة أمكِ رحمها الله: هَذِهِ هيَّ الدنيا يا ناردين.

يذهب لؤي بعد أن يطمئن على ناردين لزيارة قبر أبيه الحاج جميل القريب جدًا، ويقرأ سورة الفاتحة ويصلي عليه، ويشكره على حسن تربيته له، وعلى ما تركه له من مال كثير استفاد منه كثيرًا... ويرّدد أبيات من الشعر بصوت مسموع:

الـنفس تـبكي عـلى الـدنيا وقـد علمـت
أن السـعادة تـرك مـا فيهـا

لا دار للمـــرء بعـــد المـــوت يســـكنها
إلا التـــي كـــان قبـــل المـــوت بانيهـــا
فـــأن بناهـــا بخـــيرٍ طـــابَ مســـكنهُ
وان بناهـــا بشـــرٍ خـــابَ بانيهـــا
أموالنـــا لـــذوي المـــيراث نتركهـــا
وبيوتنـــا لخـــرابِ الـــدهرِ نبنيهـــا

- أبي الغالي وعد مني سأبني لكَ جامعًا في الزهيرات يخلّد اسمك، وسأعيد بناء ضريحكَ هذا وأبني فوقه قُبة، وسأساعد الناس كما كنت تساعدهم... الرحمة والمغفرة على روحكَ الطاهرة يا أحسن أب.

ناردين تستغرب:

- لؤي لم أسمع منكَ من قبل هذا الشعر الجميل الذي كلهُ حكمة وموعظة، وأظنه من الشعر الصوفي لأحد الزاهدين.

- نعم، ينسبه البعض للإمام علي بن أبي طالب، والله أعلم.

ينظر أبو سعد لساعته فيجدها تجاوزت الرابعة بقليل، فيقول:

- يا ناس، لنسرع، فإن الشمس إلى زوال، ونحتاج وقتًا لشراء بعض الحلويات والطرشي المدبس والتوابل من أسواق النجف، رجاءً اركبوا السيارات.

تسرع ناردين لقراءة الفاتحة على روح الحاج أبو لؤي والترحم عليه وتنبئه أنهم سموا ابنهم على اسمهِ تخليدًا لذكراه العطرة.

الجميع في سوق النجف المسقف يشترون أنواع الحلاوة النجفية المشهورة : الشكرية والرملية والدهنية والساهون وعلب من "مَّن السما" وحاويتين من الطرشي الممتاز... ثم يتحركون باتجاه بغداد ، فيصلون مدينة الحلة قبل الساعة السادسة مساءً بقليل ويستثمرون هذه الدقائق القليلة بدخول مدينة الحلة لشراء القيمر والأجبان المحلية المشهورة بها الحلة، وفِي تمام السادسة ينطلقون إلى بغداد.

- الطريق بين الحلة وبغداد يستغرق ساعة زمن ، أقترح أن نتناول العشاء في كازينو في بستان جميل يديره أهل البستان.
- كما تحب عمو أبو سعد.
- شكرًا دكتور.

الجميع في البستان فرحون مبتهجون، وصاحب الكازينو يهيء لهم أطيب المشويات من لحم الغنم الطازج الهرفي ، لكن ناردين تظهر عليها علامات التعب والإعياء ، فترتاح على الكنبة وتشرب قليلاً من اللبن، فتسترد شيئًا من نشاطها.

- عمو أبو سعد وعدتني أن تنشد لي شعر أمير المؤمنين علي الذي ورد فيه (كما أضحكك الدهر يبكيك) وبعض الأشعار عن الموت وهذه فرصة لأسمعها.
- حاضر أسمعكِ مقاطع منه:

أشــدد حيازيمــك للمــوت فــإن المــوت لاقيــك
ولا تجــزع مــن المــوت إذا حــلَّ بواديــكَ
كــما أضــحكك الــدهر كــذاك الــدهر يبكيــكَ

- أما الشعر عن الموت يا ناردين ابنتي ليس الآن وقته، لكن وعد مني في إحدى أمسيات الليالي حين تزورونا أو نزوركم أكيد سأحكي لكِ ما تريدين، ولكني أودُّ أن أراكِ تحبين الحياة وتتمسكين بها بقوة، فالجانب المعنوي مهم جدًا وأساسي في تمشية أمور الحياة، فلتكن معنوياتك عالية دائمًا، فهذا برأيي أحسن أنواع العلاج.

- حاضر عمو.

يذهب كلٌ منهم إلى بيتهِ في سيارته الخاصة...

رحلة جميلة ولكنها متعبة ومحطاتها كثيرة، خاصةً زيارة المقبرة كانت تقبض النفس، فكيف يقولون: إذا ضاقت الصدور زوروا القبور... صحيح أن الأمثال تُضرب ولا تُقاس.

هذا الإنسان الجميل النظيف وخاصةً المرأة التي تقضي جَلَّ وقتها في ترتيب زينتها وعنايتها بنفسها ولبسها، في النهاية تسير مرغمة إلى المصير المحتوم، (من التراب جُبلتم وإلى التراب تعودون) أي كل إنسان مهما كان في النهاية يسير في الطريق الذي لا يرغب ان يسير فيه، فهل هذه حكمة وعدالة

من رب العالمين ، وكل الفقهاء يقولون ان الله حكيم وعادل وهذه أدلة عقلية.

أكيد الله حكيم، والحكيم لايخلق الإنسان عبثًا، وهذا يعني وجود حياة ثانية لأن الله خلق الإنسان لغرض ، وأكيد الله عادل ، والذي لا يُحاسب في الدنيا على ذنبٍ سيحاسبه الله في العالم الآخر ، ولكن هل وجود جهنم قضية عادلة ؟ المفروض أن يُحاسب الإنسان المذنب على قدر جريمته في هذه الدنيا طبقًا للقوانين الوضعية ولا يخلد بالنار ، وهذا يعني أن جهنم خلاف العدالة والمنطق، ثم ماذا يستفاد أهل الجنة من حرق الناس في جهنم ، وماذا يستفاد المجرم من تخليده في النار ؟ ربما تكمن الفائدة في شفاء غليل المظلومين... وحتى المظلومين لا أعتقد أنهم وهم يعيشون في الجنة يحملون الحقد والضغينة والغل ، وهناك احتمال انهم غير راضين على وجودهم في الجنة دون شغل وعمل ، لا إنتاج ولا إبداع ، فقط أكل وشرب ونوم ، وغرائز حيوانية ، المفروض الحياة فيها لذة في العمل في الزراعة والصناعة والولادة وهذه كلها غير موجودة في الجنة.

عندما يكون الإنسان عظيم الإيمان يُؤْمِن بالجنة والنار وغيرها ولكن إذا اهتزَّ هذا الإيمان فيكون الصدق كل الصدق إذا طابقت هذه الأفكار الواقع ، وعلينا أن نتصور أن الإنسان يعيش في رحم هذا الكون مثلما تعيش الحيامن في الكون الصغير رحم المرأة ليلقح حيمنًا واحدًا من عشر ملايين حيمن البويضة

والباقي تموت كلها في الطريق، حيمن واحد فقط لتبدأ الحياة الجديدة، وهذا سبب كافي ليتوجه جميع الناس إلى الله جَلَّ جلاله رغبةً منهم في أن يكون مثواهم الجنة.

هذا الكلام كان بودّي ان أحكيه إلى ناردين، لكني لم أشأ أن أتعبها فوق تعب المرض، رغم أنها دكتورة ولكنها رقيقة ولديها من الحب ما يكفي كل الناس، ولكن الله سبحانه ابتلاها بهذا المرض اللعين، نعم سأحكي لها، هذا أكيد، ولكن ليس مثل هذا الكلام الذي ربما يجعلها تفكر كثيرًا فيتعبها.

حقًا إنها أفكار متعبة، على الإنسان أن يعيش بسعادة وفرح ويبتعد عن أفكار الفقهاء والزهاد.

(١٢)

اليوم الجمعة وبيت أبو سعد مدعوين في بيت لؤي ونارين على الغداء.

يذهب أبو سعد إلى علوة السيدية ويشتري خروفًا صغيرًا ، ويطلب من القصاب ذبحه وتقطيعه ووضعه في أكثر من كيس، يطلب منه اللحم فقط، وما عداه يتركه للقصاب.

يذهب هو وأم سعد وإحدى البنات لأن البقية عندهم امتحانات وعليهم تحضير دروسهم.

لؤي وأبو سعد يوزعان كمية من لحم الخروف على الجيران وبالاستعانة بحسن وزوجته فدوى ، ويحتفظ حسن بحصص زملائه في العيادة والمختبر ومعمل الأشعة.

يتناول الجميع الغداء هنيئًا مريئًا ويشربون الشاي ويأكلون بعض الحلويات وهم سعداء ونارين وسطهم سعيدة بهذه اللمة من الأحباب.

- عمو وعد الحر دين ، وأنتَ وعدتني أن تسمعني بعض الأشعار عن الموت.

- نارين ابنتي ، كما قلت لكِ تمسكي بالحياة ، كوني دائمًا متفائلة ، اطردي التشاؤم والخوف من قلبكِ وعقلكِ ، المعنويات العالية مهمة ومفيدة.

- عمو هذه ثقافة عامة، وإلا لماذا حفظتها أنت؟
- والله أصبحتُ لا أقدر عليكِ لكبر عقلكِ وذكائكِ... طيب، طيب... حاضر.
- عمو سبق أن ذكرت لي نصًا في كتابكم المقدس يقول: (كل حي يموت وكل ما يُصنع بالأيدي يفسد)، وذكرت لي أيضًا نصًا يقول: (أنتم تسمونه الموت ونحن نسميه الحق)، وفي القرآن الكريم آية تقول، {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}... قل لي بربكَ أيُّ حق أن نعيش، لنموت... لماذا ؟!، ولماذا نفارق أهلنا وأحباءنا، ولماذا أفارق أولادي جميل ونورهان وهما مازالا حتى الآن بحاجة ماسة لي؟
- اسمعي عمو الله يخليكِ ويعطيكِ الصحة والعافية: الموت هذا اللغز المحير الذي يخافه الجميع، والذي تغنَّى به الشعراء مكرهين، وكثيرة هي الأشعار نذكر منها:

قول عنترة:

إن المنية منهلٌ لابدَ أن أسقى بكأسِ المنهلِ

وقول طرفة بن العبد:

لعمركَ ما أخطأ الموت الفتى لكَ الطول المرخا وثنياه في اليدِ

وقول كعب بن زهير:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يومًا على آلةِ الحدباء محمولُ

والقصة كما فهمتها من القرآن الكريم، وفيها أوجه تشابه مع ما ورد في التوراة: أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم تعظيمًا وتشريفًا لآدم، فسجدوا جميعًا إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين استكبارًا منه على آدم، فقال الله له: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك؟ قال إبليس: أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين، قال الله له: اخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين، فكان جزاء إبليس لعصيانه لأمر الله خروجه من الجنة إلى الأرض، فكان هذا سببًا لكراهية إبليس لآدم وذريته وتوعده لهم بإغوائهم أجمعين.

ثم أمر الله آدم وزوجته حواء أن يسكنا الجنة ويأكلا من ثمارها ويبتعدا عن شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فأتى الشيطان إلى آدم وحواء بهيَّئة حية، وقال لهما: هل أدلكما على شجرة إن أكلتما منها خلدتما فلا تموتا، وملكتما ملكًا لا ينقضي فيبلى؟ وحلف لهما أنه ناصح لهما فيما ادعاه من كذب، فأكل آدم وحواء من الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها، وأطاعا أمر إبليس، وخالفا أمر ربهما فانكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورة عن أعينهما، فأقبلا يشدان عليهما من ورق الجنة ليسترا عوراتهما، وناداهما ربهما قال لهما: ألم أنهكما عن تلكم الشجرة وأقول لكما إن الشيطان لكما عدو مبين؟ قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا ذنوبنا وترحمنا وتتجاوز عنا لنكونن من الخاسرين في العقوبة، فتاب الله عليهما، وأوحى

إليهما: أن اهبطوا من الجنة آدم وحواء وإبليس بعضكم لبعض عدو يكون إبليس لهما عدوًا وهما لإبليس عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين منتهى آجالكم وإبليس إلى النفخة الأولى، قال الله: فيها تحيون - يعني في الأرض - وفيها تموتون عند منتهى آجالكم ومنها تخرجون يوم القيامة.

أما القصة في كتاب الصابئة المندائيين (الكنز العظيم): كان الله يريد أن يجعل من عالم الظلام عالمًا نورانيًا يشبه الجنةيعيش فيه الملائكة الأثريون مثله مثل عوالم النور ، ولهذا أمر الملاك المبجل "منداديهيي" بهذه المهمة. كلَّفَ الملاك منداديهيي ولدهُ الملاك هيبل زيوه بعد أن هيأهُ وسلَّحه بمزيدٍ من الضوءِ والنورِ وبعددٍ من الملائكةِ الأثريين، وتمَّ القضاء على الجن والعفاريت وعلى عظيمهم كرون الكريه وأمهم الروهه (الشر)... وعاد الملاك هيبل زيوه يبشر أباه بهذا الإنجاز العظيم... هذا باختصار شديد... الذي حصل أن أولاد الملاك يوشامن طلبوا من أبيهم أن ينزلوا على وجه السرعة ليبنوا هذا العالم القبيح (عالمِ الظلام، المملوء كله بالشرِ، بالغائلة، بالنار الأكلة، عالم الفتنة المضطربْ ، عالم الغشِّ والكذب ، المزروع بالشوكِ والعليق) يعيدون تنظيمه ، ويسبِّحون ويمجدون الله وأباهم الملاك يوشامن.. وهذا ما حصل، كلَّفَ الملاك أباثر سادن باب الجنة أو كما تسمونه "رضوان" بهذه المهمة... حدَّق الملاك أباثر بالمياه الأسنة السوداء من بُعد ونادى ابنًا له سمَّاه بثاهيل

وكلفهُ بهذهِ المهمة المُعقدة... بالنتيجةِ تمكَّن الملاك أبثاهيل وبالتعاون مع الملاك أباثر، وبأمرٍ من الله (فرفع السماء وبسط الأرض ونادى ملائكة النار: وُهِبت الشمسُ ضياءً، ووُهبَ القمرُ بهاءً، والنجوم سناءً، ورُفعت كلٌ إلى مدارٍ، وتكونت العواصف والنار، وتكونت الثمار، والأعناب والأشجار، وتكون الحيوانُ الأليف، والوحش الكاسر، ومن الترابِ والطين الأحمر، والدمِ والمرارة... ومن سِرِّ الكون، جُبلَ آدمُ وحواء... وحلت فيهما النسمة بقدرة ملكِ النور)... والحديث هنا طويل وشيق، ولكن السؤال: لماذا كان الموت نصيبنا؟... التفسير وفق ما فهمت، أن الملاك بثاهيل لم يُخلق من المياه الحية الجارية الصافية وإنما من المياه الأسنة، فجاء ناقص ضوء ونور، ولأن جسد آدم جُبِل من طين وليس من نور، ولأن العفاريت والمردة ساعدوا الملاك بثاهيل في صنع جسده (قالوا جئنا لنكون لك خُدَّامًا مساعدين)... حكمَ على بني آدم بالعوزِ والنقصان، وبالأمراض والأوجاع والشيخوخة والموت... ويبقى السؤال: إذا كان الملاك بثاهيل قد أخطأ في حق أبينا آدم ؛ فما ذنبنا نحن معشر البشر؟!... ولماذا نُعاقب كل هذا العقاب العسير والطويل؟!... ولماذا لا يتشفع لنا الملاك بثاهيل وهو يعيش في عالم الأنوار معززًا مكرمًا؟!... ولماذا لا ينصفنا الملاك أباثر وبيده الميزان وهو سادن باب الجنة؟!... ولماذا أهلنا الأخيار الذين فارقونا لا يقيمون هناك احتجاجًا أن يكون هذه العالم جزءًا من عالم الأنوار؟!.

- عمو ولو أتعبتك ، لكن هناك أشياء فهمتها واستوعبتها ، وهناك أمور لم أفهمها أريدكَ في وقتٍ آخر أن تشرحها لي، لأني الآن أقدِّر الجُهد الذي بذلته معي، ولكن السؤال: كيف يستطيع ملاك أن يخلق آدم والخالق موجود.
- ابنتي هناك فرق ما بين الخالق والصانع ، الملاك بثاهيل صانع، صنع جسد آدم المادي من الطين، ولكن النفس أو كما تسمونها الروح ؛ بعثها الخالق الله عزَّ وجلّ ، وأولجها في جسد آدم المسجى بلا حراك فدبَّت فيه الحياة وتحرك، ولهذا يتكون الكائن الحي من عنصرين أساسيين : مادي يتمثل بالجسد الذي صُنِع من التراب وإلى التراب يعود، وروحاني يتمثل بالنفس (النسمة) وهذه خالدة لا تُحاسب ولا تموت لأنها هبة من الله جل جلاله.
- الآن فهمت هذه، ولكن لدي الكثير من الأسئلة لنا فيها جولة أخرى.

يتدخل الدكتور لؤي في الحديث:

- ناردين أتعبتِ عمو أبو سعد اليوم ، ولو أني الطبيب الاختصاصي فهمتُ الشيء الكثير من حديث عمو أبو سعد، وفعلاً لنا جولات أخرى معه لينورنا بهذه المعلومات المفيدة، ولكن أرجوكِ أبعدينا عن ذكر الموت وبلاوي الدنيا.
- يا لؤي يا حبيبي، هَذِهِ هيَّ الدنيا، شئت أم أبيت.

- ولكني لستُ ملزمًا أن أعيش مشاكلها، الأفضل أن أبحث عن السعادة فيها.
- بربكَ يا لؤي، هل أنا من ذهبتُ إلى المرض؟ أم أن المرض هو الذي جاءني رغمًا عني؟
- حقكِ والله أنت معذورة يا حبيبتي، الله يكون بعونكِ ويشفيكِ.
- ما رأيكم عمو أنت ولؤي أن نذهب الأسبوع القادم لزيارة الإمام الأعظم في الكاظمية، والإمام عَبَد القادر الكيلاني في باب الشيخ، والإمامين الجوادين في سامراء؟
- حبيبتي ناردين أنا أحب زيارة أمي وأختي في الزهيرات، وأطمئن على صحة أمي.
- حبيبي لؤي، الحاجة أم لؤي اتصلت بي البارحة وستأتي لزيارتنا بعد غد، ونسيتُ أن أقول لك، وسألتُها إن كانت تريدك أن تأتي أنت لها لتسهل أمر مجيئهم أو تبعث لهم سيارة، فقالت: لقد رتبنا كل الأمور فلا تتعبوا أنفسكم.
- إذن فرصة نأخذ الحاجة معنا لأنها عاتبتني على عدم أخذها معنا للنجف لزيارة الحاج أبو لؤي والترحم عليه.

(١٣)

التحاليل والأشعات والفحوصات كلها لا تبشر بخير ، والكبد لا يعمل إلا بنسبة بسيطة من كفائته وبمساعدة العلاج تحت إشراف لؤي المركز ، ولكن ناردين تتحامل على نفسها وتحاول أن تستخدم كامل طاقتها وبمعنويات مرتفعة.

تأتي الحاجة أم لؤي محملة بأنواع الفواكه والمأكولات التي يحبها ولدها لؤي ، ويبعثون قسمًا منها بيد حسن إلى بيت أبو سعد العزيز.

أبو سعد وأم سعد يزوران بيت لؤي مساءً للسلام على الحاجة وليطمئنوا على صحة ناردين لساعة زمن ، ويؤكد الجميع موعد زيارة الجمعة.

الحاجة قلقة بشأن صحة ناردين وهزالها ووجهها الأصفر وشفتيها الناشفتين والهالات السوداء حول عيونها ، ولكن لؤي ولدها يقول لها:

- الله كريم ، المرض مستفحل يا أمي ، والله أرحم الراحمين ، ونحن لم نترك شيئًا نقدر عليه إلا عملناه ، وحتى هذه الزيارات ما هي إلا نوع من العلاج النفسي المفيد لرفع المعنويات ومحاولة للتغلب على المرض.

أم لؤي تلاحظ أن ناردين أكلها جدًا قليل، فتناولها قطعة من اللحم، فتعتذر منها وتقول:

- منذ فترة طويلة قاطعتُ اللحوم واعتمدتُ في غذائي على الخضروات كنوع من العلاج.

- ابنتي ناردين الله يكون بعونك ويساعدك ويخليكِ ويشفيكِ.

يوم الجمعة ينطلقون جميعًا في الساعة الثامنة صباحًا إلى سامراء أولاً، ويصلون في الساعة التاسعة والنصف تقريبًا.

- عمو أبو سعد، أريد أن أسمع منكَ فكرة بسيطة عن الإمامين الجوادين، الله يخليك.

- حاضر ابنتي الغالية، ولكن باختصار، قلتِ فكرة، لكي نعود إلى بغداد تنتظرنا زيارتان ويُستحسن أن تكونا في المساء والليل حيث الأنوار الجميلة وكثرة عدد الزائرين... ولو أن دكتور لؤي وعدنا أنه سيشرح لنا شيئًا.

- والله عمو أبو سعد لم يسمح لي وقتي أن أحضِّر الموضوع، فهذه المرة سماح.

- طيب، والآن اسمعوا مني ما أعرفه عن مرقد الإمامين العسكريين باختصار شديد:

ضريح الإمامين علي الهادي المتوفى سنة ٨٦٨ م / ٢٥٤هـ وابنه الحسن العسكري المتوفى سنة ٨٧٤ م، يُلقب بضريح العسكريين أو بضريح القبة الذهبية، والتي يبلغ اتساعها نحو

٢٠ مترًا ومحيطها ٦٨ مترًا لتصبح واحدة من أكبر القباب في العالم الإسلامي. انتهى العمل في قبة الضريح في العام ١٩٠٥ وتغطيها ٧٢ ألف قطعة ذهبية، ويبلغ ارتفاع كل من مأذنتي الضريح ٣٦ مترًا واللتان دُمرتا في تفجير استهدفهما يوم ١٣ يونيو/ حزيران ٢٠٠٧. يقع الضريح في سامراء أو "سر من رأى" كما كانت تُسمى، وعلى بعد ١٢٤ كلم شمال بغداد كما رأيتم. وهو واحد من بين عدة مزارات رئيسية يقدِّسها المسلمون. والأضرحة الأخرى الرئيسية موجودة في النجف وكربلاء وحيّ الكاظمية في بغداد. ويضم الضريح أيضًا قبر السيدة حكيمة بنت الجواد عمة الحسن العسكري، وزوجته السيدة نرجس وهي أم الإمام المهدي أخر الأئمة. ويُعتقد أن المهدي ابن الحسن العسكري، الإمام الثاني عشر، اختفى في قبو داخل هذا الضريح في العام ٨٧٨م، إلا أن هذا الاعتقاد غير دقيق، حيث أن سبب تقديس هذا المكان للاعتقاد أنه كان منزل الإمام المهدي قبل الغيبة، أي في حياة أبيه عليهما السلام.

لقد فجر مسلحون مجهولون، صباح يوم الأربعاء ٢٢ فبراير/ شباط ٢٠٠٦م، قبة ضريحي الإمامين المعصومين علي الهادي والحسن العسكري، مما أسفر عن هدم جزء كبير منها... ثم في منتصف يونيو/ حزيران ٢٠٠٧م تم تفجير مئذنة الضريح... ولكن الدولة بعد الاستقرار الأمني أعادت البناء على أحسن ما يمكن، بهذا المنظر المبهر الموشى بالذهب الخالص.

يرتاحون في الحضرة ، وتصلي الحاجة ونارديـن ، ويدعون للجميع بالصحة والعافية والخير والسعادة ولموتاهم بالرحمة والغفران، وتقول الحاجة:

- ربنا الشفاعة والدعاء لكَ وحدكَ ، ولكننا تعودنا أن نتشفع بالأولياء الصالحين ، هكذا علمنا آباؤنا... ربنا أدمها علينا نعمة يا أرحم الراحمين ، وابرأ لنا ناردين بنت نورهان ، وامنحنا الصحة والأمان يا كريم يا رب العالمين، كلنا من آدم وآدم من تراب وأنت مولانا وخالقنا أجمعين ، فاهدي قادتنا إلى إحقاق الحق والعدل والمساواة والنزاهة وتحقيق الأمان ورفاهية الناس.

- أبو سعد ، هل سمعت ما قالت أمي الحاجة؟ إنها تحب كل الناس وتفهم حتى في السياسة.

- بارك الله لكَ في أمكَ يا لؤي ، وإلا من أين أتيتَ أنت بهذا الخلق الرفيع.

- شكرًا عمو أبو سعد، أنت والله أحسن.

في الساعة الواحدة ظهرًا يتحركون إلى سامراء ، ويختارون مطعم مشويات مشهور ، ويأخذون جولة في أسواق سامراء الزاهية، ويشتري أبو سعد كمية من أسماك دجلة الطازجة لهم ولبيت لؤي.

يعرجون بعد ذلك لمشاهدة جامع الملوية المشهور بمأذنتهِ المشهورة بالملوية، إنها بدعة معمارية من بدع الزمان، وهكذا العراقيون على مَرَّ التاريخ متميزون بإبداعاتهم، فهذه الجنائن المعلقة التي كان يجب أحياؤها، وهذه الزقورات، وهذه مسّلة حمورابي وقوانينه التي سبقت كل الحضارات، أجدادنا علموا الإنسانية الكتابة وصنعوا لهم الدولاب الدوار ونظموا سدود الري والزراعة والصناعة، ونظموا الجيوش، إنهم السومريون والاكديون والبابليون والاشوريون والعباسيون ، حضارات سادت ثم بادت ، وهذه آثارهم الاركلوجية ما زالت شاخصة وتملأ متاحف العالم... والحديث هنا طويل.

الساعة الثالثة ظهرًا ينطلقون عائدين إلى بغداد ، فيصلون الحضرة الكاظمية الساعة الرابعة والنصف

- عمو أبو سعد، فكرة بسيطة عن الإمام الكاظم.

- حاضر ابنتي، فكرة سريعة:

الحضرة الكاظمية هي ضريح الإمام موسى الكاظم وحفيده الإمام محمد الجواد، بُنيت فوق قبرهما في منطقة الكاظمية في بغداد. ويقابل المرقد من الجهة الأخرى من نهر دجلة مرقد الإمام أبو حنيفة النعمان كما تعرفين.

للمسجد قبتان متساويتا الأبعاد وأربع مآذن كبيرة ، ارتفاع السقف يبلغ ٢٥م تعلوه القبتان المزينتان بالزخارف الإسلامية

والآيات القرآنية من الداخل، من الخارج غُلِّفت القبتان بتسعة آلاف طابوقة من الذهب الخالص وحولها المآذن الأربع المغلفة بالذهب أيضًا والتي ترتفع إلى ٣٥م فوق السقف، وحول القبب أيضا أربع منارات... تصوروا أن أهلنا الصابئة هم من يقومون بتغليف هذه المراقد المقدسة بالذهب الخالص حُبًّا وكرامةً واحترامًا لقدسيتها عند إخوانهم المسلمين لمهارتهم الفائقة بمهنة الصياغة.

فِي الساعة السادسة مساءً يتحركون إلى باب الشيخ لزيارة الحضرة الكيلانية للإمام عبد القادر الكيلاني...

- وهذه فكرة أيضًا سريعة يا ابنتي عن هذا المقام للإمام عبد القادر الكيلاني (٤٧٠هـ - ٥٦١هـ)، هو أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله، يعرف ويلقب في التراث المغاربي بالشيخ بوعلام الجيلاني، وبالمشرق عبد القادر الكيلاني، ويعرف أيضًا بـ"سلطان الأولياء"، وهو إمام صوفي وفقيه حنبلي، لقبَّه أتباعه بـ"باز الله الأشهب" و"تاج العارفين" و"محيي الدين" و"قطب بغداد "... ولد في ١١ ربيع الثاني وهو الأشهر سنة ٤٧٠هـ الموافق ١٠٧٧م، وهناك خلاف في محل ولادته، حيث توجد روايات متعددة أهمها القول بولادته في جيلان في شمال إيران حاليًا على ضفاف بحر قزوين، والقول أنه ولد في كيلان العراق وهي قرية تاريخية

قرب المدائن ٤٠ كيلو متر جنوب بغداد ، وهو ما أثبتته الدراسات التاريخية الأكاديمية وتعتمده العائلة الكيلانية ببغداد... وقد نشأ عبد القادر في أسرة وصفتها المصادر بالصالحة، فقد كان والده أبو صالح موسى معروفًا بالزهد، وكان شعاره مجاهدة النفس وتزكيتها بالأعمال الصالحة ولذا كان لقبه "محب الجهاد".

- نكتفي بهذا القدر من المعلومات يا ناردين لأن الوقت أدركنا وكثرة المواقع ارهقتنا وأنا بصراحة أخاف عليكِ لأنكِ متعبة ولم تتناولي شيئًا من الطعام يسندكِ ويقويكِ... ولهذا علينا أن نعود إلى بيوتنا لأني أرى الحاجة أم لؤي أيضًا متعبة ، المفروض كل جمعة زيارة لمرقد واحد حتى يأخذ الإنسان راحته ويستلذ بالزيارة.
- عمو طول العمر لكَ، أنا أحس أن أيامي قليلة، وأريد أن أكمل كل ما في نفسي ، وأشكركَ لأنكَ ما قصرت معي وتحملت كثرة طلباتي.
- ابنتي ناردين أنتِ تتدللين، المهم أن أراكِ مرتاحة وسعيدة.
- الله يخليك عمو أنا ممنونة منكَ، ويبقى لي طلب عندك أرجو أن تلبيه لابنتك ناردين التي تحبكَ.
- اطلبي وأنا حاضر.

- إن أمكن في الجمعة القادمة أن نزور مندي الصابئة المندائيين في القادسية لأشاهد مراسيم التعميد عندكم.
- بكل ممنونية، ولكن يوم الأحد، وستشاهدون مراسيم زواج كاملة ، ومن ضمنها مراسيم تعميد العروسين... لؤي : ضروري تأخذ أجازة يوم الأحد وسيكون غداؤكم في بيتنا لقرب السيدية من القادسية، وتقديرًا للحاجة أم لؤي.

يعود الجميع إلى بيوتهم بنفوس مطمئنة وقلوب يملؤها الإيمان والشكر لله على أفضالهِ ونِعمه.

وحسب الموعد يلتقون يوم الأحد في مندي الصابئة في القادسية وينتقلون إلى أرض التعميد على ضفاف نهر دجلة الخالد في جزيرة الأعراس حيث تجرى مراسيم الزواج، والتي من أهمها التعميد في الماء الجاري الذي يبعث الطهارة والنقاء في النفس ويبعد عنها آثامها ومعاصيها، في الدين المندائي يحبذ أن يكون التعميد في يوم الأحد، ويعدُّ الزواج عند المندائيين من الأمور الجوهرية في العقيدة والإيمان ، فالمرء غير المتزوج يعتبر غير كامل دينيًا وروحيًا، لأن فلسفة الزواج هي الاقتران بقصد التكامل في الطبيعة والحياة ، ولغرض الإنجاب وديمومة العنصر أيضًا. والمندائية عمومًا تحرِّم أشد التحريم الرهبنة (أي الامتناع الإرادي عن الزواج بأي قصد) وتعتبره من محرماتها، كما أن النصوص المندائية تنتقد بشدة الرهبان الذين

يعزفون عن الزواج. ويعتقد المندائيون بأن من يعيش بلا زوجة طيلة حياته، لا جنة له في أخرته، فالزوجة هي الجزء المتمم للرجل، وهي التي تنجب له الأطفال، ويعتبر الإنجاب جزءًا متممًا للدين، والأولاد هم الذين يحملون الجنازة، ويقومون بإجراء الطقوس الدينية الواجبة بعد الوفاة، والتي تساعد الميت على بلوغ الجنة في أخرته، كما أن الرهبنة محرَّمة أيضًاغاية التحريم لأنها ضد الحياة، والحياة في العقيدة المندائية الصابئية هي محور الدين.

- اسمعيني ناردين، سيقوم رجال الدين الآن بمراسيم الزواج، وستشاهدينها عمليًا، ويمكنك الاستفسار مني أو من رجال الدين عن أي مفردة لا تفهمينها... ولمعلوماتك فالصابئة المندائيون يعتبرون أنهم غرس التوحيد الأول، وأن نبي الله آدم رأس السلالة البشرية خُلِق مندائيًا، وكذلك خلقت زوجته حواء، وأن ارتدائهم الملابس البيضاء تعبير عن السلام والطهارة والنور، وأن النور والماء والحياة حلقات متصلة، والحديث هنا طويل وشيق، وأحب أن أسمع أسئلتكَ لأجيبكِ عليها.
- عمو، لماذا يغطس العروسان في الماء؟!
- لأن الغطس بالماء طهارة للجسد والنفس، والخروج بعد الغطس واستنشاق الهواء يعني بداية حياة جديدة للمتعمد.
- وبأي لغة يتكلم رجال الدين؟

- باللغة المندائية، التي هي لهجة من اللغة الآرامية، وتشبه إلى حد بعيد اللغة السريانية.
- عمو، هل لي الحق أن أتعمد؟
- كلا حبيبتي لا يحق لكِ، لأنكِ لا تملكين اسمًا دينيًا مندائيًا، ولأن الدين المندائي دين مغلق وليس دينًا تبشيريًا.

(١٤)

تمرُّ الأيام ثقيلة على ناردين ولؤي بسبب انتكاس صحتها وفقدان شهيتها للطعام ، فسيتعين لؤي ببعض العصائر والفيتامينات ، ومع ذلك فإن وزنها ينقص سريعًا ، حتى هبط دون الأربعين كيلوغرام ، ووجهها ازداد اصفرارًا ، مع تعرق وحرارة لا تقوى على تحملها رغم المسكنات وأدوية خفض الحرارة ، حتى أصبحت درجة حرارتها الاعتيادية لا تقل عن ٣٨ مْ ، فيضطر لؤي للجوء إلى الكمادات.

يستعين لؤي بزملائه الأطباء الاختصاصيين في مدينة الطب ، أخصائيو الباطنة وأخصائيو الأمراض الخبيثة ، وطبيب متخصص في أمراض الكبد ، يعقدون لجنة رباعية من مختلف الاختصاصات ويدرسون الأعراض والتحاليل وكافة الأشعات العادية والمقطعية ، بالرغم من أن كثرة الأشعات تلحق أضرارًا بالكبد ، ولكن من مبدأ مضطر أخاك لا بطل.

يجلسون في صالة البيت لمناقشة الحالة وشرب القهوة التي أعدتها لهم سلوى...

- الحالة متقدمة جدًا وميئوس منها ولكن مع هذا لنجرب العلاج الكمياوي بالحقن ، ولنزيد قليلاً العلاج ، ونرى ضرورة نقلها لمركز علاج الكبد في مدينة الطب لأنها تحتاج دم بسبب نقص الهيموغلوبين الذي من أعراضه أيضًا قلة الشهية للطعام.

ينقلها لؤي إلى مركز معالجة الكبد تحت إشراف زميله الطبيب المختص، وينقلون لها كيسًا من الدم، وتبدأ في جلسات الحقن بالعلاج الكميائي، ولكن صحتها تزداد تدهورًا، فيضطر لؤي لإعادتها إلى البيت لأن ضغطها بدأ يهبط وكذلك دقات قلبها ونبضها، ولأنها لا تتحمل البقاء في المستشفى.

- لؤي أرجوك أعدني إلى بيتي لتكتحل عيني برؤية أطفالي وأشم رائحتهم، وأريد ان تكون عيني في عينكَ لآخر لحظة لي في هذه الحياة.

يعودان مرغمين إلى بيتهما مراعاةً لحالتها النفسية، ولأنه لا أمل في الشفاء مهما حاولوا، ولؤي حريص أن لا يزيد من عذابها.

يطلب من أمه أن تصطحب الأطفال معها إلى الزهيرات وترسل له أخته.

تشعر ناردين بذلك فتمسك يده وترجوه ان يأتي بأطفالها بجوارها على السرير، كما تطلب منه أن ترى أبو سعد وأم سعد قبل أن ترحل.

يتصل بأبو سعد وهو يبكي، ويرجوه سرعة الحضور مع أم سعد لأن ناردين في الرمق الأخير.

يحيط الجميع بها بعيون دامعة وهم يكتمون قدر طاقتهم نشيجهم وبكاءهم المكبوت...

يشير أبو سعد على لؤي بضرورة إرسال الطفلين إلى بيتهم أو إلى الزهيرات، لكي لا ترتسم في عيونهما ووجدانهما صورة وفاة أمهما أمام عيونهما، فسيبقى هذا المشهد يدور أمامهما ويلازمهما طول الحياة.

بصوت مبحوح ومنخفض تتكلم ناردين :

- عمو أبو سعد، تتذكر حكاية "رأس المال" التي حكيتها لي عن الفلاح سماري، وقلتَ إن رأس المال موجود؟... الآن حتى رأس المال لن يكون موجودًا.

- ابنتي، البركة بأولادك وبزوجك... واللي خلف ما مات يا ابنتي، فأنتِ حيةٌ بولدكِ أنور وبابنتكِ نورهان وبزوجكِ لؤي.

- لؤي: أرجوك أعطني يدكَ وعاهدني أن لا تنساني أبدًا، وأن تعتني بأولادنا عناية العيون بالأقدام، وأرجوكَ أن تحافظ على صداقتكَ مع أبو سعد طالما أنتما على قيد الحياة... وأن تبقي عيادتي مفتوحة تحمل اسمي... وأن تحدِّث أولادي عني بكل ما هو جميل.

يبكي لؤي ويقبِّلها ويعدها أنه سيبقى على العهد، وسيخصص جُلَّ وقته لتربية الأولاد.

- ابنتي ناردين سيكون مثواكِ الجنة بإذن الله سبحانه، وسنلتحق بكِ كلنا بعد حين شئنا أم أبينا، وكلنا سنسير في الطريق الذي لا نرغب أن نسير فيه، ولكنها حكمة الله... هذه سُنة الحياة،

وكما كانت تقول لكِ أمكِ رحمها الله : هذه هي الدنيا يا ناردين... ستذهبين يا ابنتي إلى أهلكِ الطيبين، فهم الآن في انتظاركِ لتعيشي معهم معززة مكرمة كما يعيش الملائكة الأثريون.

لؤي بعيون دامعة يرجو من ناردين أن تسمح للطفلين بتناول عشائهما، فتنظر لهما يمينًا ويسارًا، ولا تستطيع احتضانهما لتضعهما على صدرها الحنون.

سلوى وفدوى تساعدان لؤي في أخذ الطفلين، ويطلب من حسن زوج فدوى اصطحابهما مع والدته إلى الزهيرات وجلب أخته عوضًا عن أمهِ.

أم سعد في المطبخ مع سلوى وفدوى، وقد علا نحيبهن، بينما لؤي وأبو سعد في غرفة النوم مع ناردين، وهي تحرِّك عينيها بينهما...

رفعت ناردين يدها اليمنى وأفردت سبابتها وحرَّكت شفتيها وهي تتلو الشهادة... لؤي يركز عيناه في عينيها والدموع تفيض منهما، ويلاحظ نزول دمعات غاليات من عيونها.

وفجأةً يتوقف البؤبؤ عن الحركة، فيغمض لؤي عينيها بيدين مرتعشتين... يرتمي على كتف أبو سعد... ويجهش بالبكاء.

انتهت

المؤلف في سطور

- الدكتور بشير عبد الواحد يوسف.
- وُلِد في مدينة العمارة (محافظة ميسان) في ١٢ - ٨ - ١٩٤٣م وانتقل مع أهله في نفس العام إلى مدينة البصرة وأكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والإعدادية في مدارسها.

- حصل على الشهادات:

١- بكالوريوس هندسة طيران.

٢- ماجستير هندسة طيران.

٣- دكتوراه علوم سياسية.

٤- دكتوراه دراسات مندائية (أديان مقارنة).

- صدر له:

١- بناء هيكل الطائرات ومنظوماتها.

٢- بناء محرك الطائرات النفاذة ومنظوماتها.

٣- صيانة الطائرات النفاذة ومنظوماتها.

٤- رئيس اللجنة المشرفة على ترجمة الكتاب المقدس لطائفة الصابئة المندائيين (الكنز العظيم).

٥- حكايات صغيرة: شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٦م

٦- الصابئة المندائيون بين الإنصاف والإجحاف : شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٧م

٧- الموسوعة المندائية ١ : شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٨م

٨- الحب الحقيقي: رواية. شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٨م

٩- رضاب: رواية. شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٨م

١٠- الفريضة: رواية. شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٩م

١١- الموسوعة المندائية ٢ : شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٩م

١٢- يا ناردين ، هذه هي الحياة : رواية. شمس للنشر والإعلام، ٢٠٢٠م

- البريد الإلكتروني: bashir_1208:yahoo.com

Tel :(+2) 01288890065

www.shams-group.ne